قُرَيش فى الطّريق إلى الإسْلاَم

حتى مسير قريش وأحلافها إلى المدينة فى ذى قعدة سنة ٥هـ أبريل ٦٢٧م . كان رجالها يأملون فى إحراز نصر نهائى حاسم على الإسلام والمسلمين وجماعات البدو التى سارت معهم ، وخاصة من غطفان وسليم بن منصور كانت تُمنِّى نفسها بفوز عظيم وغنيمة وافرة ، فإن الأمل فى اقتحام المدينة ونهبها وسلب خيراتها كان عظيماً ، وكان كل المشتركين فى هذا الهجوم يعرفون أنهم يقومون بعمل خطير يقضى على ما توهموا أنه فتنة وقلب للأوضاع ، ولكنهم جميعاً كما رأينا لم يُقدِّروا الظروف الجديدة حَقَّ قدرها ، وساروا فى جحفل لجب ولكن دون استعداد كامل وتقدير محكم ، وهنا كانوا كما قلنا جاهليين يعيشون فى عصر مضى ، كانت الحروب فيه ضربات يقوم بها فرسان ذوو خيلاء وكبر وغرور ، وكان أقصى ما يهمهم قتل كبار الرجال لكسر الشوكة ونهب العدو وسلب سلاحه إظهاراً للقوة ثم سبى نسائه والتصرف فيهن بالتسرى أو البيع ، رمزاً للمهانة وثلم الشرف وفضيحة العدو حتى يشتهر الأمر فى العرب ويمضى فى تصويره الشعراء ، حتى تكون هزيمة الخصم مادية ومعنوية.

ولكن الأسبوع الأول لمعركة الخندق دل القرشيين وحلفاءهم على أن مثل هذا النوع من الصراع انتهى عصره . وخطاب أبى سفيان الذى أتينا به دون أن نقطع بأصالة نصه - يفصح عن شعور الحيرة واليأس وخيبة الأمل (وجعلتَ مضايق وخنادق . مَنْ علَّمك هذا) وقد قلنا : إن المسألة لم تكن مسألة خندق أو شق فى الأرض حفره المسلمون ، بل هى مسألة عقل جديد وفكر جديد ، فإن المسلمين لو شاءوا أن يخوضوا مع المشركين معركة قتل ودماء لخاضوها وكسبوها ، ولكن المسلمين تخطوا فى هذه الحرب مرحلة عصر ظواهر الكبرياء والوحشية والجشع والإذلال ، ودخلوا عصر القوة المعنوية والتفوق الفكرى والصراع من أجل المبادىء لا من أجل الأحساب والأعراق .

وهذا الطراز من الصراع سنراه من الآن فصاعداً : سنراه فى الحديبية وفى فتح مكة وفى المحاولة الأولى لفتح الطائف . وفى الأخبار التى يقصها الواقدى فى تفاصيل الخندق حكاية هى أشبه بالرمز على ما نقول ، فقد « حمل الزبير بن العوام على نوفل ابن عبد الله بن المغيرة بالسيف حتى شقه باثنين وقطع أندوج سرجه - والأندوج اللِّبد الذى يكون تحت السرج - ويقال إلى كاهل الفرس ، فقيل له : يا أبا عبد الله ما رأينا سيفاً مثل سيفك ! فيقول : والله ما هو بالسيف ولكنها الساعد »[1] وهنا أيضاً نستطيع أن نقول : والله ما هو بالخندق ولكن بالروح التى وراء الخندق ، وما كان الخندق إلا شقاً عرضه بسطة أى قامة رجل ، ولكن هذا الشق كان يفصل عالمين ، وفارقاً بين روح التشفى والانتقام والفروسية الفارغة والجشع والاختلاف والفوضى وعدم الاستعداد خارج الخندق ، والإيمان والوحدة والروح والعقيدة الرفيعة والنظام والاستعداد وروح البذل وحكمة القيادة داخله .

ومؤرخونا القدامى - وما أكثر ما يفوتهم لباب الحوادث - ويتابعهم فى ذلك الكثيرون من المحدثين - وما أكثر ما يفوتهم إدراك صميم الهدى المحمدى - يصورون نصر الخندق وكأنه مجرد نصر قوة على قوة ، ويقتصر تصويرهم على صورة الرسول القائد ، الذى يروح ويغدو ويصدر الأوامر ، ويفوتهم أن الذى كان يقود هنا ، والذى انتصر هنا هو الهَدْىُ الرفيع الذى كان محمد صلوات الله عليه يسير بأمته فى طريقه ، وهل كان لدى الرسول سجن يعاقب فيه المخالفين ؟ ولكن القرآن والهدى النبوى والمثال المحمدى ، أيقظت فى الناس ضميراً هو أقوى من أى سلطان ، وانظر إلى حديث أبى لبابة بن عبد المنذر فى خبر بنى قريظة تخرج منه بجانب كبير من المعانى التى نشير إليها فى سياقنا هذا .

والخبر بتمامه يعطينا مثالاً من طريقة محمد ﷺ فى تربية أمته : فنرى فى الجزء الأول منه كيف أنه لم يكن يجبر أحداً من أصحابه على شىء ، مادام الصحابى يتصرف فى حدود حقه ، حتى لو رفض لرسول الله طلباً ، وفى الجزء الثانى من الخبر نرى نفس الصحابى عندما أحس أنه وقع فى خطأ فى حق الرسول والجماعة بادر بعقاب نفسه

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٤٧٢ .

بنفسه ، بل إنه عندما نزلت آية قرآنية تبشر الصحابى بعفو الله من العقاب الذى فرضه على نفسه ، أبى أبو لبابة إلا أن يكون رسول الله ﷺ هو الذى يفك وثاقه استبلاغاً منه فى إظهار الندم لما بدر منه ، وإليك نص الخبر بتمامه كما يرويه الواقدى ، ومساق الخبر عنده أَوْفَى منه عند غيره :

« حدثنى مَعْمَر بن راشد عن الزهرى ، عن ابن المسيب قال : كان أول شىء عتب فيه رسول الله ﷺ على أبى لبابة بن عبد المنذر أنه خاصم يتيماً له فى عذق . فقضى رسول الله ﷺ بالعذق لأبى لبابة ، فصيّح اليتيم واشتكى إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ لأبى لبابة : هب لى العذق يا أبا لبابة - لكى يرده رسول الله ﷺ إلى اليتيم - فأبى أبو لبابة أن يهبه لرسول الله ﷺ فقال : يا أبا لبابة ، أعطه اليتيم ولك مثله فى الجنة ، فأبى أبو لبابة أن يعطيه .

قال الزهرى : فحدثنى رجل من الأنصار قال : لما أبى أن يعطيه قال ابن الدحداحة - وهو رجل من الأنصار : أرأيت يا رسول الله إن ابتعتُ هذا العَذْق فأعطيته هذا اليتيم ، أَلِى مثله فى الجنة ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم . فانطلق ابن الدحداحة حتى لَقِىَ أبا لبابة فقال : أبتاع منك عَذْقَك بحديقتى ، وكانت له حديقة نخل ، قال أبو لبابة : نعم ، فابتاع ابن الدحداحة العذق بحديقة من نخل ، فأعطاه اليتيم ، فلم يلبث ابن الدحداحة أن جاء كفار قريش إلى أُحُد ، فخرج ابن الدحداحة، فقُتل شهيداً ، فقال رسول الله ﷺ : رُب عَذْقٍ مذلَّلٍ لابن الدحداحة فى الجنة »[1].

فهذا رجل يحكم له الرسول بشىء يجد أن له فيه حقاً ، ثم يرق رسول الله لليتيم صاحب العذق عندما بكى لفقدان ما كان يظن أن له فيه حقاً ، فيطلب الرسول إلى أبى لبابة أن يهب له العذق ، فيرفض أبو لبابة فلا يغضب الرسول ، فيعود ويسأل أبا لبابة أن يتنازل عن العذق ويكون له مثله فى الجنة ، فيرفض ، ويدعو الرسول حتى يتقدم ابن الدحداحة فيستبدل العذق بحديقة له ، يأخذها أبو لبابة بعد أن يرد العذق على اليتيم .

وعندما حاصر رسول الله ﷺ بنى قريظة وكان أبو لبابة حليفاً لهم ، وتبين لليهود

---

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٥٠٥ .

أنهم لن يستطيعوا الثبات ، يطلبون إلى رسول الله أن يكون أبو لبابة هو رسول التفاوض بينهم وبين المسلمين ، ويذهب أبو لبابة فينصح اليهود بالاستسلام لرسول الله ، ويشير بيده إشارة معناها أنهم إذا لم يستسلموا فسيكون القتل مصيرهم ، ولم يكن الرسول قد قال له من ذلك شيئاً ولا هو عوّل عليه ، إنما هو سيحكم فيه سعد بن معاذ وسعد يقضى بما يرى إذا ارتضاه اليهود ، ثم أحس أبو لبابة أنه بفعله هذا قد خان الرسول ونسب إليه ما لم يكن ، وتخطى حدود مهمته ، وأدركه الندم وسالت دموعه ، وأسرع إلى المسجد من طريق لا يراه فيه أحد ، فربط نفسه إلى أسطوانة فيه عُرِفت فيما بعد بأسطوانة التوبة .

وبلغ ذلك الرسول ﷺ فقال : « دعوه حتى يحدث الله فيه ما يشاء ، لو كان جاءنى استغفرت له ، فأما إذ لم يأتنى وذهب فدعوه ! قال أبو لبابة : فكنت فى أمر عظيم خمس عشرة ليلة » (١) وكان رَبْطه نفسه فى وقت حر شديد وانقطع خلال خمس عشرة ليلة عن الطعام ، ويقال وعن الشراب أيضاً ، ولكن هذا متعذر ، فلا يصبر الإنسان على العطش هذه المدة ، وقال للناس : « لا أزال هكذا حتى أفارق الدنيا أو يتوب الله علىَّ . فلم يزل كذلك حتى ما يسمع الصوت من الجهد ، ورسول الله ﷺ ينظر إليه بُكْرة وعشية ، ثم تاب الله عليه ، فنودى : إن الله قد تاب عليك ! وأرسل النبى ﷺ ليطلق عن رباطه ، فأبى أن يطلقه عنه أحد غير رسول الله ﷺ ، فجاء رسول الله ﷺ بنفسه فأطلقه » (٢) .

فهذا المَثَل يُريك قوة الضمير الذى أيقظه الإسلام فى المسلمين ، وهذا الضمير هو الذى بث فى المسلمين القوة والنظام والطاعة والإقدام وروح التضحية والتماسك فأصبحوا قوة لا قِبَل لقريش أو لغيرها بها ، فكأن قوة الإسلام كلها انبثت فى قلب كل مسلم على حدة ، فأين تطيق قريش أو غيرها الثبات لهذه القوة ؟

وليست لدينا أخبار عما فعلت قريش حتى نصل إلى حديث الحديبية ولكن الأخبار عن المسلمين كثيرة ، ومن هذه الأخبار نتبين أن قريشاً قبعت فى دارها بعد

---

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٥٠٧ .

(٢) الواقدى ، مغازى ٢/ ٥٠٧ - ٥٠٨ .

فشل محاولة الخندق مستكينة لا يدرى رؤساؤها ماذا يفعلون . لقد انتقلت القيادة والمبادرة منها إلى أمة المدينة ، وفى العادة عندما تحس جماعة أثناء صراع أنها فقدت الأمل فى النصر ، فإنها تقبع فى دارها وتتحصن فى عقرها وتقصر عن الأفعال وتكتفى بردود الأفعال ، وتحملها الأحداث معها كأنها سفينة تحطمت أشرعتها وتكسرت مجاديفها وكَلَّتْ قواها وتركت نفسها للتيار .

وفى نفس الوقت نجد المدينة وقد تحولت إلى مركز نشاط واسع المدى ، فقد أحست بقوتها وأدرك أهلها أن ما وعدهم به الله ورسوله كان حقاً ، وأن الله سبحانه منَّ عليهم فجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين .

فلا يكاد المشركون ينصرفون حتى يسير الرسول ﷺ إلى بنى قريظة ليحاسبهم على ما كان منهم من خيانة المسلمين ونقض الحلف والانضمام إلى الأعداء فى وقت الشدة ، ولم يكن هناك مفر من ذلك وينتهى الأمر باستسلامهم ، ويقبلون أن يحكم فيهم حليفهم القديم سعد بن معاذ بن النعمان نقيب بنى عبد الأشهل وسيد الأوس جميعاً ، وطالما اعتزت اليهود بالأوس قبل الإسلام ، ويقضى سعد بن معاذ فيهم بقتل الرجال وسبى النساء والذرية واقتسام الأموال بحسب ما يرى رسول الله ﷺ ، وبذلك تكون أمة الإسلام قد خلصت من جماعات اليهود الخطرة الثلاث الكبرى المعاندة الحاقدة المتخونة (ذو القعدة - ذو الحجة ٥هـ/ مايو ٦٢٧م) ، وقد كسبت أمة الإسلام من ذلك إلى جانب الأمن مالاً استخدمه الرسول فى شراء خيل وسلاح للمسلمين [١] حتى يتلافى ناحية النقص فى القوة العسكرية للمسلمين ، وتنتهى بذلك الميزة التى ظلت قريش تعتز بها على المسلمين حتى الخندق ، أما بعد الخندق فستكون خيل المسلمين أقوى خيل فى شبه الجزيرة .

ولم يكن تصرف رسول الله ﷺ فى هذا الباب نابعاً من اعتبارات عسكرية ، بل كان صادراً عن تفكير نبى مرسل وشاهد ومبشر ونذير وداع إلى الله بإذنه وسراج منير . فهذه القوة العسكرية لن تستعمل فى الغزو أو العقاب أو مد السلطان أو الغارة والسلب وفرض الطاعة أو الإتاوات ، بل ستستخدم للإنذار والتحذير وسيكون

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٥٢٣ .

تصرف النبى بقوة جماعته العسكرية تصرف الشاهد ، والشاهد هنا هو النموذج والمثال والقدوة ، وانظر إلى هذا المعنى القرآنى فى قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾[1] و﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[2] و﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾[3] ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ﴾[4] و﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾[5] .

والسرايا والغزوات بعد الخندق تنطق بذلك ، فعندما سمع رسول الله ﷺ أن أعرابياً جلفاً يسمى خالد بن نبيج من هذيل ثم من لحيان ، تحدِّثه نفسه بالعدوان على المدينة وإثارة الشغب فى المنطقة الواقعة بينها وبين مكة ، عرف أنه أمام بدوى جاهلى إذا هو تُرِك وشأنه لتأتَّى منه أذى كبير ، خاصة وهو يقيم فى نواحى عُرَنَة جنوبى عَسْفان قريباً من أبواب مكة ، ولا يستبعد أن يستثير قريشاً ، ويدفعها إلى مغامرة حمقاء ، وكان رسول الله قادراً على أن يبعث نحوه سرية ضخمة تنزل ببنى لحيان ضربة قاصمة ، خاصة وأن لحيان كان لها عدوان سابق على المسلمين ، ولكن لحيان وغيرها من قبائل الأعراب كانت قد غفلت وأدركت أنها لا تستطيع ممارسة أعمال الأعراب مع أمة المدينة ، فيجىء هذا الجاهل الذى كان يقول : « لم يلق محمد أحداً يشبهنى » فيكون علاج مثل هذا الرجل أن يقضى عليه وحده ، فيرسل رسول الله إليه سرية من رجل واحد هو عبد الله بن أنيس ، يخرج بسيفه ليس معه شىء غيره ، فيذهب الرجل فيقضى على هذا المشاغب ويعود (ذو الحجة ٥هـ/ مايو ٦٢٥م) .

ويبلغ الرسولَ شىءٌ مثل ذلك عن بنى بكر بن كلاب وبنى محارب وموطنهم بالربذة ، أنهم يمارسون أعمال البدو فى منطقة داخلة فى نطاق أم المدينة ، فيندب بعثاً صغيراً من نحو ثلاثين رجلاً ، فيه رجال صناديد منهم عباد بن بشر ، وسلمة بن

---

(١) النساء ٤/ ٤١ .
(٢) البقرة ٢/ ١٤٣ والمراد لتكونوا نماذج ومُثُلاً للناس وليكون الرسول نموذجاً ومثلاً لكم .
(٣) الحج ٢٢/ ٧٨ .
(٤) آل عمران ٣/ ١٤٠ .
(٥) المائدة : ٥/ ٨ .

سلامة بن وقش ، والحارث بن خَزَمَة وعليهم محمد بن مسلمة ، وكلهم من فرسان المدينة الذين تربوا على يد محمد ﷺ ، أخذوا عنه دروس النظام والطاعة والدقة فى التنفيذ والحزم ، وهم يخرجون هذه المرة فوارس ، فيضربون ضربة موجعة سريعة هى فى ذاتها نذير ، ويعودون بخمسين ومائة بعير وثلاثة آلاف شاة . ولم تكن المدينة بحاجة إلى ذلك المغنم اليسير ، ولكن فقدانه موجع لهؤلاء الأعراب وكافٍ لردِّهم إلى السكون والتعقل (المحرم ٦هـ/ يونيو ٦٢٧م) .

وفى غزوة بنى لحيان (ربيع الأول ٦هـ/ يوليو ٦٢٧م) نحس إحساساً عميقاً بحيوية المدينة وقدرتها على القيام بما تريد دون أن تحسب لقريش أى حساب . فقد كان رسول الله ﷺ قد وجد وجداً شديداً على عاصم بن ثابت وأصحابه ، وهم الذين استشهد معظمهم وأُسِر بعضهم فى سرية الرجيع (صفر سنة ٤هـ/ يوليو ٦٢٥م) وهم جماعة مرثد بن أبى مرثد الغنوى ، فخرج فى مائتى رجل من أصحابه معهم عشرون فرساً - وخرج بهم حتى وصل إلى بطن غران حيث كانت مصارع أصحابه فترحم عليهم ، وكان خبيب بن عدى وزيد بن الدَّثِنَّة من جماعة بعث الرجيع أسيرين فى مكة ؛ لأن اللحيانيين الذين غدروا بالبعث باعوهما من أهل مكة فابتاع خبيباً حيى ابن إهاب بثمانين مثقالاً ، وأما زيد بن الدثنة فقد اشتراه صفوَان بن خلف من قتلى بدر .

فأما خبيب بن عدى فقد حُبِس فى بيت امرأة يقال لها ماوية مولاة لبنى عبد مناف ، وأما زيد بن الدثنة فقد حُبِس عند ناس من جمح ، وتلك ظاهرة جديدة علينا من ظواهر تنظيم مكة ، فها هم المكيون يشترون اثنين من أعدائهم ليقتلوهما ببعض من قُتِل منهم فى بدر ، وقد اشتروهما من بدو بنى لحيان الذين غدروهم ، وكان أولئك الأعراب قد دبروا خداع رسول الله ﷺ ، فبعثوا إليه من يعلن حاجتهم إلى من يعلمهم الدين ، وكان غرضهم الحقيقى أن يأسروا من يستطيعون أسره من صحابة رسول الله ﷺ فيصيبوا بهم ثمناً . وهذا هو الذى حدث : غُرِّر المسلمون وقُتِل عامتهم إلا خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة فاشترتهما قريش ، وكان الذى تولى ذلك صفوان ابن أمية .

وهذا الخبر نخرج منه بحقيقتين تتعلقان بأحوال قريش فى الفترة بعد أُحُد ، فهى تشعر أنها لم تصل إلى ما تريد من الانتقام من المسلمين ، وبدلاً من أن تواجه المسلمين فى معركة صريحة ، تتواطأ مع الأعراب لتنال بالغدر ما لم تنل بالقتال لأنها كانت تشعر أنها أضعف من المسلمين ولا تثبت لهم فى لقاء .

والحقيقة الثانيـة هى احتجاز الأسرى عند قـوم من المجاهيل حتى يحين موعد قتلهم ، فلماذا لم يحتجز صفوان خبيباً فى داره مقيداً بالأغلال ؟ ولماذا يدعه فى بيت ماوية التى ذكرناها ؟ ومن الممكن تفسير حجز عبد الله بن الدثنة عند ناس من جمح بأن جمحاً قوم صفوان وهو كان إذ ذاك رئيسهم .

وقد تجمعت قريش لشهود قتـل خبيب ، والمشهد نفسه ينم عن نفسية قريش إذ ذاك ، قال الواقدى : « فأخرجوه (خبيب بن عدى) بالحديد حتى انتهوا به إلى التنعيم، وخرج معه النساء والصبيان والعبيد وجماعة من أهل مكة ، فلم يتخلف أحد : إما موتور فهو يريد أن يتشافى بالنظر من وتره ، وإما غير موتور فهو مخالف للإسلام وأهله . فلما انتهوا به إلى التنعيم ، ومعه زيد بن الدثنة ، فأمروا بخشبة طويلة ، فحفر لها ، فلما انتهوا بخبيب إلى خشبته قال : هل أنتم تاركىَّ فأصلى ركعتين ؟ قالوا : نعم ، فركع ركعتين أتمهما من غير أن يُطوِّل فيهما »[1] ..

وهذا المشهد فى ذاته ينطق بتهافت همم القرشيين ، فكل الذى استطاعوه هو أن يشتروا من الأعراب اثنين من المسلمين ويقتلوهما على هذه الصورة الأليمة . وموقف خبيب بن عدى يوم استشهاده كان رمزاً على القوة المعنوية الرفيعة التى كان عليها المسلمون إذ ذاك ، فقد استقبل الموت مستبشراً حتى إنه لم يُطِلْ صلاته خشية أن تظن قريش أنه جزع من الموت ، وقد أرادت قريش أن تفتنه عن دينه فأبى فى عزة وإيمان . والحوار بين القرشيين وبينه يتجلى لنا حروفاً من نور ينبىء عن روعة الإسلام .

قال الواقدى : « قالوا (يريد رواته) : فلما صلى الركعتين حملوه إلى الخشبة ، ثم وجَّهوه إلى المدينة وأوثقوه رباطاً ثم قالوا : ارجع عن الإسلام نُخَلِّ سبيلك . »

---

(١) الواقدى ، مغازى : ١/ ٣٥٨ .

قال : لا والله وما أحب أنى رجعت عن الإسلام ، وأن لى ما فى الأرض جميعاً !

قالوا : أفتحب أن يكون محمد فى مكانك وأنت جالس فى بيتك ؟

قال : والله ما أحب أن يُشَاكَ محمد بشوكة ، وأنا جالس فى بيتى .

فجعلوا يقولون : ارجع يا خبيب !

قال : لا أرجع أبداً !

قالوا : أما واللات والعزى ، لئن لم تفعل لنقتلنك !

فقال : إن قَتْلى فى الله لقليل »[1] .

وقد أعطى القرشيون غلماناً من أبناء من قُتِل ببدر حراباً وأمروهم أن يطعنوا خبيباً ففعلوا . ولم يقتلوه بطعناتهم وإنما زادوا ألمه ، وقد حكى واحد من الغلمان وهو عقبة ابن الحارث بن عامر ، وكان من أولئك الغلمان ، فقال فيما بعد : « والله ما أنا قتلت خبيباً ، إن كنت يومئذ لغلاماً صغيراً ، ولكن رجلاً من بنى عبد الدار ، يقال له أبو ميسرة عوف بن السباق أخذ بيدى فوضعها على الحربة ، ثم أمسك بيدى ، ثم جعل يطعن بيده حتى قتله »[2] .

والمشهد نفسه يدل على تردِّى قريش ونسيانها تقاليدها القديمة ، فهذه ليست قريشاً العزيزة التى عرفناها قبل الإسلام ، ولكن الحقد وعمى البصيرة والشعور بالضعف هبط بالقرشيين إلى ذلك المستوى ، ويتأكد لنا هذا المعنى إذا قرأنا الواقدى : وكان الذين أجلبوا على قتل خبيب ، عكرمة بن أبى جهل ، وسعيد بن عبد الله بن قيس ، والأخنس بن شريق .

وأما زيد بن الدثنة ، فقد جعل صفوان بن أمية غلامه نسطاس يقتله ، وكان قد ثبت ثبات صاحبه وأذهل القرشيين بثباته وإخلاصه لدينه وحبه لنبيه ، وفى ذلك يقول الأخنس بن شريق: « ما رأينا والداً قط يجد بولده ما يجد أصحاب محمد بمحمد ﷺ» .

---

(١) الواقدى ، مغازى : ١/ ٣٦٠ .

(٢) الواقدى ، مغازى : ١/ ٣٦١ .

ورغم الشرك والحقد فقد تأثر الكثيرون من القرشيين بمشهد استشهاد خبيب وابن الدثنة ، ويرد الكثيرون منهم ذلك إلى خوفهم من دعوة خبيب بن عدى ، لأن خبيباً قبل أن يموت دعا على قريش فقال : اللهم احصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تغادر منهم أحداً ! فأرعبتهم فيما زعموا تلك الدعوة ، ولكننا نقول : إنها رهبة هذا المشهد . ويهمنا هنا أن نذكر ما قاله معاوية بن أبى سفيان ، وكان قد حضر المشهد وهو صبى ، قال : لقد حضرت دعوته (دعوة خبيب) ولقد جبذنى يومئذ أبو سفيان جبذة ، فسقطت على عَجُب ذنبى (آخر عموده الفقرى) فلم أزل أشتكى السقطة زماناً ، فكأن أبا سفيان روَّعه المشهد فلم يحب أن يشهده ابنه فجبذه وألقاه على الأرض . وكان أبو سفيان لا يشارك قريشاً فى تلك العداوة العمياء .

وستسترد قريش شعور الإنسانية بعد أن تسلم ، فعكرمة بن أبى جهل مثلاً ، الذى كان من أكبر الداعين إلى هذه البشاعة ، سيحارب فى سبيل الإسلام فى بسالة وطلباً للشهادة حتى ينالها ، وصفوان بن أمية أسلم وهاجر إلى المدينة وحَسُن إسلامه .

ونعود إلى غزوة بنى لحيان التى استطردنا عنها ، فنقول : إن تفاصيلها تدل على ضعف لقريش بالغ ، وعجز منها عن مواجهة الإسلام بَيِّن . وهذه الغزاة كان قد دفع إليها وجد رسول الله ﷺ لما أصاب أصحاب الرجيع وخاصة من أُسِر منهم فى مكة ، فأراد - وخبيب وزيد بن الدثنة لا زالا فى الأسر - أن يعاقب أعراب لحيان الذين فعلوا بأصحابه ذلك ، فخرج فى مائتين من أصحابه فيهم عشرون فارساً ، وأغذَّ السير حتى بلغ إلى بطن غران حيث استشهد أصحاب بئر معونة ، ثم مضى حتى بلغ عسفان على أبواب مكة ليرى القرشيون أنهم وبلدهم فى متناول يده ، وكان ذلك فى الشهر الحرام ولم يكن رسول الله ليفتح مكة على أهلها فيه ، ولكنه وقف عند عسفان ، ثم نادى أبا بكر فأرسله فى جماعة حتى أتى كراع الغميم فلم يجد من قريش حركة ، وقد أمسكهم الخوف من الخروج إليه ، وقال رسول الله ﷺ : إن ذلك يبلغ قريشاً فيذعرهم ويخافون أن نكون نريدهم ، وما كان الرسول ليتجاوز هذا فى الشهر الحرام ، ولو أراد أن يرهب قريشاً حتى تفرج عن صاحبيه لفعل ، ولكنه ﷺ كان يرى أن وقت مكة لم يَحِنْ بعد ، وأنه لو تهددهم فربما وقعت حرب ومات فيها كثيرون ونال

مكة ضرر بالغ ، وما كان يريد ذلك ، ثم إنه ﷺ كان لا يفعل شيئاً إلا وفق خطة مرسومة ، فاكتفى بذلك وعاد ، وإن كان القرشيون قد خافوا فعلاً ، ولكنهم سكتوا حتى انصرف عنهم إلى المدينة ، وهنا تحركوا وقتلوا خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة .

وقد حدثت بعد ذلك غزوة الغابة (ربيع ثانٍ سنة ٦هـ/ أغسطس ٦٢٧م) . وكان الدافع إليها أن عيينة بن حصن وقد رأى أنه اشترك فى الخندق وعاد بصفقة الخاسر - يستطيع أن يمارس مع المدينة غارات البدو ، فأغار على سرح المدينة من ناحية الشمال وسرق هو وأربعون من أصحابه عدداً من لقاح رسول الله ﷺ ، بلغ عشرين لقحة ، واللقحة الناقة الحامل ذات اللبن ، وكان ذلك يوم ثلاثاء وفى يوم الأربعاء التالى كان الرسول ﷺ على صهوة جواده فى إثر الغزاة ، وكان أبو ذر الغفارى وابنه ينامان مع إبل الحمى وحذره الرسول من ذلك ، فلما كانت غارة عيينة قتل ابن أبى ذر ، ويستوقف نظرنا هنا حسن استعداد المدينة لمثل هذه الطارئة ومبادرتها لإدراك السُّرَّاق.

وكان عيينة ينوى أن ينهب إبلاً لعبد الرحمن بن عوف فأخطأ وأغار على لقاح الرسول فى الليل ، فما كاد يفوز بمغنمه حتى وجد رجال المدينة فى أعقابه ، وقد عقد الرسول لواء للمقداد بن عمرو وأمره بطلب الغزاة حتى يلحق به فى أصحابه ، وفى تفاصيل هذه الغارة من نجدة المسلمين واستبلاغهم فى الجهد ما يدعو إلى العجب . فهذا المقداد بن عمرو يعدو حتى يدرك مؤخرة اللصوص ويقتل منهم رجلاً يسمى مسعدة ، ولا يريد أن يشغل نفسه فيغطيه ببُرْده ليعرف أن سلبه له ثم يواصل الطرد ، ويلحق به أبو قتادة ثم سلمة بن الأكوع هذا العدَّاء الرامى الذى يسبق الخيل ويرمى فلا يخطىء ، ثم يلحق بهم الرسول ﷺ فى الناس ، ويحسُّ عيينة بن حصن أنه تعرض لما لا يستطيعه فيجدّ فى الهرب وهو يرجو أن ينجو من أيدى المسلمين ، ويقتل ابنه فى الطرد ، ويرى من نجدة المسلمين ما لا يجعله يفكر فى أن يفعل مثل هذه الفعلة أبداً ، فهذا المقداد بن عمرو وذاك محرز بن نضلة وثالث هو عكاشة بن محصن ومن الأنصار سعد بن زيد وهو أميرهم فى هذه الغزاة ، وينجو عيينة بجلده ولكنه يفقد ولده ويقتل ثلاثة من رجاله ويستعيد المسلمون من اللقاح عشرة ، وهذا أمر لم تكن الأعراب

تعرفه : أن يلحقهم من يُغيرون عليه ويطردهم هذا الطرد ويستعيد منهم نصف المسروق ويلجئهم إلى الإسراع إلى عقر منازلهم .

وكان هذا آخر ما حاوله ذلك الإعرابى الجلف عيينة قبل خيبر ، بل إن هذا الدرس الذى تلقاه فى غزوة الغابة هو الذى أوقفه وشَلَّ حركته فى خيبر ، فلم يجرؤ على إنجاد أحلافه من يهود خيبر ، وسقطت خيبر وهو ينظر ، وعندما سقطت انتهت فى نفس الوقت قوة غطفان وكُسِرت شوكتها ، فإن خيبر كانت مركزها العمرانى ، وبدون مركز عمرانى لا تعمر جماعة بدوية طويلاً ، وهذا هو الذى جعل عيينة بعد خيبر يتجه إلى المدينة طائعاً صاغراً هذه المرة لأن رسول الله عرف كيف يذعره ثم يقص جناحيه ، وسيسلم هذا الرجل إسلاماً سطحياً ولكن الرسول يقبله ، لأنه لم يكن ينظر إلى عيينة بذاته بل إلى غطفان وهى قبيل من العرب عظيم .

فإذا كان عيينة قد أسلم على حرف ، فإن معظم غطفان أسلموا عن قلب ، وهذا هو لباب الأمر ، وإن الإنسان لا يملك وهو يتأمل تصرف الرسول ﷺ إلا أن يقضى عجباً من رجاحة عقله وحسن تقديره العجيب ، فإنه يرسل عيينة هذا مع قومه من غطفان لإدخال أعراب تميم فى الإسلام ، والإعرابى لا يفله إلا أعرابى مثله ، وعلى يد عيينة وغطفان كان دخول تميم وغطاريف تميم الإسلام ، وكانوا يحسبون أن ربك لم يخلق فى أرضه أعز منهم ولا أبلغ خطاباً ولا أحسن شعراً ، فانقادوا للإسلام وطاعوا وقد بهرتهم المعجزة من كل جانب!

وسبحان من اصطفى محمداً لأعظم رسالاته فنهض بها نهوضاً يفوق المأمول فى أنظارنا ، ولكن الله سبحانه وتعالى أعرف حيث يضع رسالاته ، تعالى جَدُّه وجل جلاله ، ولا معبود سواه .

فتح خَيبَر :

تعتبر الفترة القصيرة الممتدة من غزوة الخندق أو الأحزاب (ذو القعدة سنة ٥هـ/ أبريل ٦٢٧م) وفتح خيبر (سنة ٧هـ/ يونيو ٦٢٨م) من أحفل فترات السيرة بالتوفيقات للإسلام وأهله والتغيرات الحاسمة فى الحجاز ونجد وشمال شبه الجزيرة

كله . فإن رسول الله ﷺ رأى أن انكسار الأحزاب وانصرافهم عن مكة نهاية القوة الفعلية لقريش ، وأن خير ما يفعله معها هو أن يدعها وشأنها دون أن يزيد فى التضييق عليها حتى تُلقى بيدها طائعة ، فقد توقفت تجارتها أو كادت ، وتوقفت كذلك ركبان الحجيج إلى الكعبة وتعطلت الأسواق فلم يعد يرتاد عكاظ وذا المجاز ومجنة إلا جماعات قلائل من أعراب الحيرة يمتازون فيها بما يتيسر لهم ، وتوقفت النجدية وركدت رياح مراكز كانت عامرة بالحركة والنشاط مثل قرن منازل وغمر ذى كندة وذات عرق وغيرها مما كان من قبل عامراً بالحركة ، ويتوقف نشاط الطريق النجدية بعد توقف الجادة ، وهى طريق التجارة الرئيسية من اليمن إلى مكة إلى الحيرة ، وأحست قبائل شمال الحجاز ووسط شبه الجزيرة بأنها تختنق ، فهذه الطرق كانت الشرايين التى تصلها بالدنيا خارج منازلها وكانت كذلك مصدر السلاح والماعون لها، فبدأ ينتابها ذلك القلق الذى ينتاب جماعات البشر عندما تستشعر خطراً على المصير .

وكانت أكثر القبائل قلقاً هى قبائل أعراب أطراف نجد من أمثال سليم ومحارب ولحيان وعضل والقارة ، وكلها من أصاغر قبائل مضر بن قيس عيلان ، وأما كبار قبائل الأعراب من مثل غطفان وهوازن فقد زاد اضطرابها وقلقها ، لأن إحساسها بالخطر كان أكبر ، وغطفان بالذات أحست أنها ضُرِبت ضربة أليمة بانهزام الأحزاب ، وقد كانت هى منها ، ولكنها تصرفت أثناءها تصرفاً ضعيفاً بدائياً مخادعاً ، وظنت أنها تكسب بأساليب الأعاريب ، ولكنها عندما عادت إلى منازلها أحست بأن خسارتها أفدح من خسارة قريش ، وهذا فى الغالب هو الذى دفع بعيينة بن حصن إلى اقتراف حماقة الإغارة على سرح المدينة وسرقة عشرين لقحة من لقاح حمى رسول الله ﷺ ، فعرف الرسول كيف يعاقبه على تلك الجناية التى اقترفها فى أرض الإسلام ، وذلك فى غزوة الغابة وقد ذكرناها ، وقد رأى عيينة أثناءها من عزم المدينة ومبادرتها وإحكام قيادتها ، وإخلاص رجالها ما أفزعه ففرَّ من منازل قبيلته محتمياً بتأييد خيبر وأهلها لا يكاد يريم من فرط الفزع .

ورأى الرسول أن يمهد أمر نواحى الشمال والشمال الشرقى ويزيل العقبات والأعداء من هناك ، وأحسب أن أمر خيبر تقرر فى خطة الرسول صلوات الله عليه ووضعها فى حيث تكون من توقيت التنفيذ .

وبدأ الرسول فأرسل عكاشة بن محصن فى سرية الغمر أو غمر ذى كندة ، وكانت من منازل الطريق النجدية الكبرى وحولها أعاريب شتى من محارب ولحيان فأزعجتهم الغارة عن منازلهم وأزاحتهم عن الطريق (ربيع الأول سنة ٦هـ/ أغسطس سبتمبر ٦٢٧م) ، ثم أرسل محمد بن مسلمة فى عشرة أنفار إلى بنى ثعلبة وبنى عوال عند ذى القصة على شاطىء البحر فتجمع عليهم الأعراب وقتلوا منهم ثلاثة ، وكادوا يقتلون محمد بن مسلمة (ربيع الآخر سنة ٦هـ/ أغسطس - سبتمبر ٦٢٧م) وبادر الرسول فى نفس الشهر فأرسل أبا عبيدة عامر بن الجراح ليؤدب بنى ثعلبة وأخلافهم من أنمار ، ففروا أمامه واستاق المسلمون ماظفروا به من نعمهم .

وفى الشهر التالى ، (جمادى الأول سنة ٦هـ / سبتمبر ٦٢٧م) حاولت قريش أن تسير عيراً لها إلى الشام عن طريق النجدية فبادر الرسول ﷺ وبعث زيد بن حارثة فى سبعين ومائة راكب لانتظارها عند العيص فى طريق العودة . وتلك أول مرة نسمع فيها أن القوة العسكرية للمدينة ضمَّت هذا العدد الكبير من الفرسان، فأخذ المسلمون العير بما فيها « وأخذوا يومئذ فضة كثيرة لصفوان بن أمية ، وأسروا ناساً ممن كان فى العير معهم ، منهم أبو العاصى بن الربيع »[1] وتلك هى المناسبة التى أعلن فيها أبو العاصى بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ إسلامه فى خبر معروف ، فقد ذهب إلى مكة فأدى ما عليه من الحقوق وأعلن إسلامه ، ثم لحق بالمدينة حيث رده رسول الله على زوجه .

والذى يهمنا هنا هى يقظة الرسول ﷺ وحرصه على أن يضيق الحصار على قريش تعجيلاً لانضمامها للإسلام . وجدير بالملاحظة أن الواقدى يقول : « ويقال إن هذه العير أخذت طريق العراق ودليلها فرات بن حيان العجلى »[2] وهو الخبير بطريق العراق وهو كان الذى قاد سرية ذى قرد التى أقفلت طريق العراق دون المكيين على ما ذكرناه .. ثم إن قريشاً تلقت هذه الضربة ولم تتحرك مما يدل على بالغ ضعفها وعجزها أمام المدينة .

---

(١) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٥٥٣ .

(٢) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٤٥٤ .

وعقب ذلك أرسل الرسول زيدَ بن حارثة فى بعثة إلى الطرف وهو ماء على نحو ٣٦ ميلاً (حوالى ٦٥ك.م) شمالى المدينة ، ليزيد فى أدب بنى ثعلبة ولا تحدد المراجع من بنو ثعلبة المرادون هنا ، والغالب أن المراد بنو ثعلبة بن دودان بن أسد ، وهم أبناء عمومة بنى الهون بن خزيمة وهو القارة وبنى أسد بن خزيمة ، وكانوا جميعاً من أعراب أطراف نجد وكان معظمهم يدخلون ضمن أحابيش قريش وكان الرسول ﷺ حريصاً على أن يردهم إلى النظام والسكون بين الحين والحين ، فهؤلاء هم أعاريب مضر الذين كانوا يعيشون على النهب والغارة ، وكان لا بد من إدخالهم فى العصر الجديد ونظامه ، وبنو ثعلبة هؤلاء هم أصحاب الثعلبية ، وهى واحة صغيرة على الطريق بين مكة والكوفة فى مداخل نجد .

ثم تكون سرية زيد بن حارثة إلى حِسْمَى فى جمادى الآخرة سنة ٦هـ/ أكتوبر - نوفمبر ٦٢٧م . وهى سرية حافلة بالأحداث والمعانى ، وقد أشبعنا الكلام فيها فى سيرة المصطفى صلوات الله عليه وسلامه . والذى يهمنا منها هنا أن أهل هذا الإقليم حِسْمَى ، ويقع شرقى خليج العقبة ، دخلوا الإسلام وطاع كل من فيه للمدينة بعد ضربة موجعة قام بها زيد بن حارثة ، وعندما أعلن القوم إسلامهم واختبرهم زيد بن حارثة بقراءة أم الكتاب ، أمر الرسول بأن يرد عليهم ما أخذ من سبيهم عدا القتلى الذين تنازلت القبائل الضاربة هناك عن حقها فى دياتهم ، وفيها من غطفان وبنى عذرة ووائل وسلامان وبهراء . وكان الذى أعلن هذا التنازل أبو زيد رفاعة بن زيد الذى أخذ كتاب أمان من رسول الله ﷺ ، وقد كانت الغنيمة وافرة فى هذه السرية : ألف بعير وخمسمائة شاة ، ولم تكن المدينة بحاجة إلى ذلك ، ولكن الأعراب لا يرجعون إلى رشدهم إلا بمثل هذه الضربات .

وفى سياق هذه البعوث التى كان الرسول يبعث بها إلى الشمال ، نجد رسول الله يبعث عبد الرحمن بن عوف فى بعث عدته ٧٠٠ رجل إلى دومة الجندل (شعبان سنة ٦هـ / ديسمبر ٦٢٧-يناير ٦٢٨م) وهذا جيش كبير ، وقد سبقته سرية مماثلة إلى وادى القرى مكَّنت للمسلمين من ذلك الموقع الرئيسى على الطريق إلى الشمال .

فأما سرية عبد الرحمن بن عوف هذه إلى دومة الجندل فتدلنا على بُعْد نظر الرسول ﷺ وترابط خطواته ومراحل أعماله ، فهو إلى الآن لم يستول على خيبر ، أم مراكز شمال وسط الجزيرة ، ولكنه يريد أن تكون دومة الجندل فى يده حتى إذا اتجه إلى خيبر كان واثقاً من أن أحداً لن يعينها أو يعين أهلها . ولا ننسى كذلك أن مكة كانت على خريطة أعمال الرسول ، ولكنه الآن يستوثق من الأقاصى لتتيسر الأدانى ، كانت دومة كأنها إمارة ، وكان فى أهلها نصارى كثيرون ممن يدخلون فيمن يُعرفون فى نصوصنا بعرب الضاحية ، والمراد ضاحية قضاعة وهم عرب الأطراف ، وهم غير عرب الروم من أمثال غسان وأهل البلقاء .

والطريقة التى أرسل بها الرسول صلوات الله عليه هذه السرية تستوقف النظر ، فهو يستدعى عبد الرحمن بن عوف ويقول له : وتجهز فإننى باعثك فى سرية من يومك هذا أو من غد إن شاء الله ، ويصدع عبد الرحمن بالأمر ، ولكنه يحب قبل أن يخرج أن يصلى مع الرسول فى المسجد ، وكان أصحابه قد سبقوه إلى الخروج وانتظروه عند الجرف من شمالى المدينة . ويقول له الرسول : ما خلفك عن أصحابك ؟ قال ابن عمر : وقد مضى أصحابه فى السحر فهم معسكرون بالجرف ، وكانوا سبعمائة نفر فقال : « أحببتُ يا رسول الله أن يكون آخر عهدى بك وعلىّ ثياب سفرى » وتسأل الآن : من الذى أمر أولئك الرجال وهم سبعمائة بالخروج من السَّحَر ، مع أن الرسول لم يأمر عبد الرحمن بن عوف إلا الأمس ؟ لا بد أنه كان هناك تنظيم وينفذ أوامر الرسول ، فهؤلاء الرجال لا بد أن يكونوا قد خرجوا على أمر ، ولا بد أن الرسول قبل أن يختار الأمر أمر من رآه من أصحابه ليعد - أو ليعدوا - الناس ، وهذه نواحٍ من التنظيم النبوى تغيب عن أنظار الكثيرين ، فهم يرون كل شىء يسير بنظام ودقة وحُسْن استعداد فيأخذون ذلك على أنه يتم من تلقاء نفسه دون أن يكون وراءه إعداد وتنظيم . وهل يخرج جيش كهذا إلا على استعداد وتعبئة ؟ وهل يترك واحد منهم بيته وأهله إلا إذا كان وراءه من قادة الأمة من يرعاهم أثناء غيابه .

ثم انظر إلى رسول الله ﷺ يعمم بيده عبد الرحمن بن عوف قبل خروجه : « وعلى عبد الرحمن بن عوف عمامة قد لَفَّها على رأسه . قال ابن عمر : فدعاه النبى ﷺ فأقعده

بين يديه ، فنقض عمامته بيده ، ثم عممه بعمامة سوداء ، فأرخى بين كتفيه منها ، ثم قال : هكذا فاعتم يا ابن عوف »[1] .

ثم تأمل التوجيه الرفيع الذى يكشف عن لباب دعوة الإسلام ، فإن رسول الله ﷺ يقول لعبد الرحمن بن عوف : اغز باسم الله ، وفى سبيل الله فقاتل من كفر بالله ، لا تغُلَّ ولا تغدر ولا تقتل وليداً[2] فالرسول هنا يعد قادته شكلاً وموضوعاً ، لباساً وروحاً ، وحتى لو قلنا : إن حكاية العمامة السوداء إضافة عباسية أتت فيما بعد فيبقى هذا الأسلوب الرفيع فى إعداد الرسول لأمته وقادتها .

وقد تركنا وراءنا قريشاً فى مكة محصورة مُضيَّقاً عليها مأخوذة عليها الطريق كأن زمانها ولَّى وفات ، ولكننا ننسى فى هذا السياق أن الرسول ﷺ من قريش ، وعبد الرحمن بن عوف من قريش ، وكذلك أبو بكر وعمر وبقية معظم قادة أمة الإسلام ، فهذه إذن قريش الجديدة تُولد فى ظل الإسلام بينما قريش الكافرة تموت فى شعاب مكة ، وهذا أروع شىء فى تاريخ قريش : لقد ماتت وولدت فى آن معاً ، وسبحان ربك بارىء الكون يُخرِج الحى من الميت ، ويُخرِج الميت من الحى .

إن قريشاً الابنة التى وُلِدَتْ فى نور الإسلام ونمت فى دفئه تتخطى أمها طولاً وعرضاً ، وتحنو عليها وتأسى لحالها ، ورسول الله ﷺ يرعى قريشاً الوليدة بهذه الروح الرفيعة وينظر إلى الغد ، يوم تفتح البنت العفية ذراعيها لتتلقى فى ذراعيها الأم المريضة المتعبة التى أعياها الخوف وشلل الذهن وتوقف الفكر ووَقْر السمع وعمى البصر ، وتهدهدها فى رفق وتسجيها وتفتح ذراعيها المنضامتين المتخشبتين على صدرها ، لينطلق أبناؤها الصغار الذين كادت تقتلهم فى حضنها ، لينطلقوا ويقفوا إلى جوار إخوانهم الذين سبقوهم وتبوأوا الدار والإيمان ، تُرى هل يكون هذا معنى جديد نستنبطه من قول الرسول صلوات الله عليه يوم فتح مكة : اذهبوا فأنتم الطلقاء؟

ولكننا لا نريد أن ننقل من الآن إلى تتبع تاريخ قريش الوليدة ، قريش الإسلام

(١) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٥٦٠-٥٦١.
(٢) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٥٦١ .

مخافة أن تأخذنا السيرة النبوية بفتنتها فننسى قريشاً الأم ، قريشاً الوثنية ، فلنعد إليها ولنمضِ معها حتى تلتقى القريشان عند فتح مكة .

ونستكمل خبر سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل لنتابع شهود التحول العام فى جزيرة العرب أثناء صراع القرشيين ، فنجد ابن عوف يصل إلى دومة الجندل وعلى رأسها رجل يسمى الأصبغ بن عمرو الكلبى ، وكان نصرانياً ، وقد فكر أول الأمر أن يقاوم المسلمين بالسيف ثم عاد إلى رشده فدخل الإسلام وطاع لأُمَّته وكتب عبد الرحمن إلى رسول الله ﷺ بذلك . وقال إنه يرغب فى الزواج منهم ، فكتب رسول الله إليه : إذا استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم أو سيدهم ، ففعل وتزوج تماضر بنت الأصبغ بن عمرو ملكهم ، وواضح أن رسول الله أراد بذلك أن يرتبط رئيس دومة الجندل بواحد من كبار المسلمين برابطة العهد ، فيكون ذلك مؤيداً لإسلامه وإسلام قومه . وقد أنجب عبد الرحمن من تماضر ابنه أبا سلمة ، وأصبح هذا الموقع المتطرف إلى الشمال من شبه الجزيرة من دار الإسلام ، وانقطع أمل قريش فى أن يكون لها فيه حلف أو قوة أو عون .

ويبدو أن أوان دخول خيبر فى دار الإسلام كان قد اقترب فى تقدير رسول الله ﷺ. وقد سبق أن أشرنا إلى أن خطواته كلها كانت مقدرة بحساب على أساس خطة عامة تؤدى إلى دخول شبه الجزيرة كله فى الإسلام ، لتكون بعد ذلك قاعدة لنشر الإسلام فى الخافقين ، ويبدو أن بعض زعماء العرب شعروا بذلك فقد كان أولئك الزعماء نتيجة لحياة التحدى الدائم الذى كانت قبائلهم تعيشه فى شبه الجزيرة ، كان عندهم حس موهف برياح الأحداث المقبلة قبل أن تعصف ، ويتجلى لنا ذلك فى حديث السرية التى بعثها رسول الله ﷺ يقودها على بن أبى طالب إلى بنى سعد بفدك فى (شعبان سنة ٦هـ / ديسمبر ٦٢٧ -يناير ٦٢٨م) .

والأغلب أن بنى سعد المقصودين هنا هم بنو سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة بن كنانة ، فهؤلاء أبناء عمومة بنى ثعلبة بن دودان بن أسد أصحاب الثعلبية الواقعة إلى جنوب فدك فى الطريق من مكة إلى الكوفة ، وتلك هى الجهة التى توجَّه إليها على فى هذه السرية بأمر الرسول ﷺ ، وهم كذلك أبناء عمومة الهون بن خزيمة

ابن كنانة وهم القَارَة من كبار أعاريب نجد الذين تكلفت أمة الإسلام جهداً شاقاً فى ترويضهم وإدخالهم الإسلام ، وكان على رأس بنى سعد هؤلاء رجل يسمى وبر بن عليم .

وكان الرسول يتوقع أن يقوم بنو سعد بإمداد يهود خيبر فتعجل بإرسال علىّ إليهم ، وقد صدق تقدير الرسول لأن سرية على - وعِدَّتها مائة رجل - صادفت عند موضع يسمى الهَمَج (ماء بين خيبر وفدك) عيناً ليهود خيبر كانوا قد أرسلوه إلى بنى سعد فأرسل بنو سعد « يعرضون عليهم نصرهم على أن يجعلوا لهم من تمرهم كما جعلوا لغيرهم ويقدمون عليهم » ، وغيرهم المقصودون هنا هم غطفان ، وعندما ضغط المسلمون على هذا الجاسوس أو الرسول أقر بحقيقة مهمته ، فأمَّنه المسلمون على أن يدلَّهم على منازل بنى سعد ففعل ، ونُذِر بنو سعد بالمسلمين ففروا على وجوههم تاركين نَعَمهم فأصاب منها المسلمون خمسمائة بعير وألف شاة .

وها هنا حكاية صغيرة تدل على ما بلغ إليه أمر أمة المدينة من القوة والهيبة فى شبه الجزيرة قبيل الحديبية وفتح خيبر . قال الواقدى فى المغازى : « حدثنى أُبير بن العلاء ، عن عيسى بن عُلَيْلة عن أبيه عن جده قال : إنى لبوادى الهمج إلى بديع[1] ما شعرت إلا ببنى سعد يحملون الظعن وهم هاربون ، فقلت : ما دهاهم اليوم ؟ فدنوت إليهم ، فلقيت رأسهم وبر بن عُليم ، فقلت : ما هذا المسير ؟ قال : الشر . سارت إلينا جموع محمد وما لا طاقة لنا به قبل أن نأخذ للحرب أُهبتها ، وقد أخذوا رسولاً لنا بعثناه إلى خيبر ، فأخبرهم خبرنا ، وهو صنع بنا ما صنع ! قلت : ومن هو ؟ قال : ابن أخى ، وما كنا نعد فى العرب فتى واحداً أجمع قلباً منه فقلت : إنى أرى أمر محمد أمراً قد أمن وغلظ : أوقع بقريش فصنع بهم ما صنع ، ثم أوقع بأهل الحصون بيثرب[2] ، قينقاع وبنى النضير وقريظة ، وهو سائر إلى هؤلاء بخيبر ، فقال لى وبر : لا تخش ذلك . إن بها (بخيبر) رجالاً وحصوناً منيعة وماء واتِناً (دائماً) لا دنا منهم محمد أبداً ، وما أحراهم أن يغزوه فى عقر داره ! فقلت : وترى ذلك ؟ قال : هو الرأى لهم فمكث على

(١) بديع : أرض من فدك .

(٢) أهل الحصون بيثرب هم يهود بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة كما يتضح من النص . وقد ذكر السمهودى فى وفاء الوفاء ٣٠ أطماً للأوس والخزرج و ٥٩ أطماً لهؤلاء اليهود .

عليه السلام ثلاثاً ، ثم قسم الغنائم ، وعزل الخمس وصَفَّى النبى ﷺ لقوحاً تدعى الحِفِدَة قدم بها »[1].

وفى حديث سرية أُمِّ قِرْفةٍ التى كانت فى رمضان سنة ٦هـ/ يناير - فبراير ٦٢٨م . نرى شيئاً جديداً وهو أن المدينة الآن هى التى تتولى أمر تجارة نفسها دون أن تلقى بالاً إلى مكة ، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير ، لأن القبائل على الطريق وخاصة غطفان وبطونها تعودت أن تتولى مكة هذه التجارة ، وتمنح القبائل إتاوات وخفارات . أما المدينة فلا تعطى شيئاً ، إنما هى تريد أن تسير تجارتها آمنة بين القبائل بالهيبة والحق ، لأن أداء الإتاوات للبدو الكفار غير جائز ، ولو كانوا مسلمين فربما لم يكن فى ذلك بأس ، ففيه معايش لأعراب فقراء فى حاجة إلى المعونة ، أما أن يظلوا كفاراً وحلفاء كفار فلا سبيل إلى أن ينالوا شيئاً ، وما دامت المدينة لا تؤدى شيئاً فلا بد من الغارة على متاجرها وتجارها .

وقد سبق أن اعتدى نفر من جذام ضاربون بناحية حِسْمَى على دحية الكلبى صاحب رسول الله ﷺ وهو عائد من بلاد الروم فى شعبان سنة ٦ هـ . وخلَّصه منهم نفر من بنى الضبيب كانوا أحلافاً للمدينة ، وقد خاف الجذاميون من مغبَّة ذلك فوفد منهم على رسول الله ﷺ وفد على رأسه رفاعة بن زيد الجذامى فأسلموا وكتب لهم النبى كتاباً أورد لنا الواقدى نصه وهوَ : « بسم الله الرحمن الرحيم . لرفاعة بن زيد إلى قومه عامة وَمَنْ دخل معهم يدعوهم إلى الله ورسوله ، فمن أقبل منهم فهو من حزب الله وحزب رسوله ، ومن ارتد فله أمان شهرين » ثم يستطرد الواقدى فيقول : « فلما قدم رفاعة على قومه بكتاب النبى ﷺ قرأه عليهم ، فأجابوه وأسرعوا . ونفذوا إلى مصاب دحية الكلبى ، فوجدوا أصحابه قد تفرقوا »[2] .

وما دام الإسلام قد كسب ركيزة فى حِسْمَى فقد بادر الرسول ﷺ إلى إتمام العمل بتأديب من اعتدوا على المسلمين - متمثلين فى شخص دحية - وهم قوم من جذام ومن انضم إليهم من فزارة وبطون أخرى من غطفان ، كان لا يرضيهم أن تمر تجارة

---

(١) المغازى : ٢/ ٥٦٣ .

(٢) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٥٥٧ والمراد بمصاب دحية المكان الذى أصيب فيه .

المسلمين ورجالهم دون إتاوة يؤدونها لهم غير عالمين أن نظاماً جديداً قد قام ، وأن عهد الإتاوات قد انتهى وحل محله عهد سلام الإسلام pox islamica وعماده الدخول فى الإسلام ، ومن لم يدخل فيه فأمامه شهران مهلة ليروى الأمر كما جاء فى كتاب رسول الله ﷺ لرفاعة بن زيد الجذامى .

وكان رسول الله قد أراد أن يكمل العمل بالسيطرة على بقية الأعراب الذين ينزلون فى أطراف نجد على الطريق إلى العراق ، فأرسل زيد بن حارثة فى خمسمائة رجل قبل ذلك فى جمادى الآخرة سنة ٦ ، لكى ينظروا فى أمر غطفان ووائل ومن جاورهم من سلامان [١] وبهراء بن عمرو بن الحافى بن قضاعة ، فاستعان زيد بدليل من بنى عذرة أخرجه على منازل القوم من خلف ، فأغار زيد وأصحابه عليهم وقتلوا نفراً من بنى سعد هُذيم وقتلوا الهنيد وابنه اللذين قادا العدوان على المسلمين وأغاروا على نَعَمهم وغنموا ألف بعير وخمسة آلاف شاة ومن النساء مائة من النساء والصبيان، فرجع بقية القوم ممن كانوا دخلوا فى الإسلام مع رفاعة بن زيد الجذامى يقودهم حيان بن ملة ، فقالوا لزيد إنهم أسلموا ، فامتحن زيد رئيسهم حيان بقراءة أم الكتاب فلما قرأها صدق زيد إسلامه ، ثم أسرع نفر آخر من زعمائهم فيهم أبو زيد بن عمرو ، وأبو أسماء (وهو أيضاً أبو شماس) بن عمرو ، وسويد بن زيد وأخوه ، وبرذع بن زيد إلى رفاعة بن زيد يستغيثون به ، لأنه هو الذى أخذ أمان رسول الله ودخل هو وقومه فى الإسلام ، فسار معهم رفاعة حتى دخلوا المدينة ، ولقوا النبى ﷺ وقالوا إنهم أسلموا ، وطاعوا ، فقال رسول الله ﷺ : فما أصنع بالقتلى ؟ فطلب رفاعة أن يطلق لهم الرسول الأحياء ويتنازلون عن ديات القتلى ، ويرد عليهم ما غنم زيد بن حارثة منهم ، فقبل الرسول ونادى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه لكى يبعثه إلى زيد بن حارثة .

وهاهنا ملاحظة ، فإن علياً قال لرسول الله : « يا رسول الله لا يطيعن زيد » وتلك عبارة تدل على أن زيداً لم يكن على وئام مع على ، وسنرى قرب وفاة الرسول ﷺ أن بقية كبار القرشيين من أصحاب رسول الله ، كانوا غير راضين عن زيد بن حارثة ،

(١) الغالب أن المراد هنا سلامان بن سعد هذيم من بنى أسلم بن الحافى بن قضاعة .

لا يعجبهم أن يقود السرايا من دونهم ، وكان الرسول كما سنرى يعلم ذلك بدليل أنه لم ينكر ما قال على ، بل أعطاه سيفه علامة . فلما وصل على إلى زيد وأبلغه رسالة رسول الله قال زيد : علامة من رسول الله ؟ قال علىّ : هذا سيف رسول الله فعرفه زيد وأمر بإطلاق أسرى القوم وسَبْيهم . فردَّ المسلمون من المغنم ما لم يكونوا قد تصرفوا فيه .

التمهيد للحُدَيبيّة :

من الواضح أن رسول الله ﷺ كان يمهد لخطوة حاسمة مع قريش بمكة ، وكان يرى أن يمهد لذلك بأن يُدخِل كل شمال شبه الجزيرة فى أمان الإسلام ، فمن دخل فيه راضياً فقد كرمه الله ، ومن أصر على الخلاف فلا بد من فتح بصيرته أو تنحيته عن طريق الإسلام أو أخذه بالعنف إن كان من أهل العنف والعدوان ، وكل السرايا والغزوات السابقة على عمرة الحديبية ، لم تخرج غاياتها عن هذه . وكان من البيِّن أن الأعراب لن يكفُّوا عن الغدر والعدوان إلا إذا أُخِذوا بعنف ، والأمر معهم لم يكن تأديباً أو انتقاماً أو عقاباً ، بل كان نقلة اجتماعية حضارية من البداوة والفوضى والعدوان على المسافرين أو القوافل واهتبال غِرَّة الحضر وحواشيهم ، مما كان أسلوبَ حياة وعُرْفاً جارياً عند الأعراب يقدمون عليه دون تفكير فى عقاب أو خوف من مغبة قصاص ، فعلى ذلك جُبِلوا وبه عاشوا ، وقبلهم الناس على هذا الوضع فصانعوهم بالأحلاف والإتاوات والخفارات والضربات العنيفة ما تيسر .

ولم تكن شريعة الإسلام أو أخلاقياته تسمح بالمصانعة على الباطل أو تشجيع أهل الغارة بالخوف منهم ومصانعتهم ، إنما هو تخييرهم بين الإسلام أو الكفِّ عن العدوان ، فإذا لم يسلكوا هذا المسلك أو ذاك ، فهناك الضربات الموجعات التى ترد الجاهل إلى رشاده ، ويستمر الأمر على ذلك حتى يكون فتح مكة وتنزل سورة براءة ، ولا يقبل من الكفار بعد ذلك إلا الإسلام ويُعطى المعارضين مهلة أربعة أشهر فى شبه الجزيرة ، فإما دخلوا فى الإسلام أو يأذنوا بحرب من الله ورسوله .

وكانت خيبر تعتبر عقبة كبيرة فى هذا السبيل ، ولم يكن هناك أمل فى أن يدخل يهودها فى الإسلام أو يكفوا عن الأذى ، فلم يبق إلا أن يقضى على مقاومتها وعنادها

وتدخل فى أمان أمة الإسلام ، وكان ذلك واضحاً لأهل المدينة وللأعراب من أحلاف خيبر ومصانعيها ولأهل خيبر أنفسهم ، وكان هؤلاء يجدون فى أنفسهم قوة تستعصى على الإسلام وأهله ، ولم يزل ذلك دأبهم حتى لقوا أهل المدينة فى القتال ، فَفُلَّتْ مقاومتهم وخارت قواهم وألقوا بيد وهم صاغرون ، كما فعل بنو قريظة من قبل. وبسقوط خيبر ينكسر ظهر جماعة البدو الكبرى وهى غطفان ومن انضوى إليها. وتأمن المدينة من ناحية الشمال كله وتستطيع توجيه قواها كلها نحو مكة ، وهذا هو ملخص التطور السياسى والعسكرى والاجتماعى والدينى فى شمال شبه الجزيرة من نهاية معركة الخندق أو الأحزاب فى ذى القعدة سنة ٥هـ/ أبريل ٦٢٧ م حتى فتح مكة فى رمضان سنة ٨هـ/ يناير ٦٣٠ م .

وقد أتينا بأمثلة تؤيد ذلك كله فيما روينا من أخبار الغزوات والسرايا إلى الأعراب فى نجد وشمال شبه الجزيرة والحجاز ، وليس هنا موضع إحصاء هذه الغزوات والسرايا واحدة واحدة ، فهذا موضعه السيرة النبوية الشريفة ، وإنما أشرنا إلى ما أهمنا منها . ورأينا كيف توالت السرايا والغزوات : بعد بنى قريظة ذهبت سرية محمد بن مسلمة إلى القُرَطَاء وهم بطن من بنى بكر بن كلاب من هوازن ، وكانوا ينزلون البَكْرات فى نواحى ضَرِيَّة على بعد سبع ليال (= حوالى ٢١٠ كيلو مترات) من المدينة وعادت بغنيمة وافرة من الإبل والشياه ، ثم كانت سرية عبد الله بن عتيك بن قيس للقضاء على عدو لدود للإسلام والمسلمين من يهود بنى النضير الذين لجأوا إلى خيبر ، وهو أبو رافع سلام بن أبى الحقيق .

وقد أتت فكرة القضاء عليه من ناحية الخزرج ، فقد رأوا أن إخوانهم الأوس قد أزالوا من الطريق كعب بن الأشرف ، وكان عدواً للإسلام يهودياً ، فأرادوا أن يضاهوا إخوانهم فى خدمة الإسلام وأمته بالقضاء على أبى رافع سلام ، وكان معتصماً فى خيبر وكان واسع النشاط فى إيذاء الإسلام وأمته ، مجتهداً فى التحريض عليها ، فاستأذن نفر من الخزرج على رأسهم عبد الله بن عتيك بن قيس ، النبىَّ ﷺ فى القضاء على أبى رافع فى عقر بيته ، وكانوا خمسة نفر : أربعة من الخزرج وواحداً من موالى الخزرج وهو خزاعى بن أسود وهو من بنى أسلم الخزاعيين: والخزاعيون أبناء عمومة

الأوس والخزرج ، وإن كان ابن حزم ونفر آخر من النسَّابة قد جهدوا فى ربط خزاعة إلى شجرة عدنان عن طريق عك بن عدنان .

وفى أيام الرسول ﷺ كانت خزاعة كلها إلى جانب الأوس والخزرج ، وقد دخلت خزاعة فى الإسلام وأوعبت ، وكان لذلك فيما بعد أثر بعيد فى سير الحوادث فى تاريخ المسلمين. وقد استطاع أولئك النفر القليلون من الخزرج أن يقتحموا على أبى الحقيق داره داخل خيبر ويقضوا عليه فى بيته وبين أهله ، وكان الذى تولى قتله عبد الله بن أنيس رغم أنه كان ضعيف البصر جداً لا يكاد يرى فى الليل ، وقد قتله ليلاً وقد كُسِرت ساقه وهو ينزل السلم بعد أن قام بعمله ، وكان السلم عجلة أى جذعاً منقوراً على هيئة درجات السلم .

ثم تلا ذلك غزوة بنى لحيان ، وهم من الأعراب من مُضَر نجد ، وقد نُذِروا بمسير الرسول إليهم فتفرقوا فى الجبال . وفى هذه الغزاة نقرأ أن رسول الله ﷺ عندما أخطأه من غِرَّتِهم - بنى لحيان - ما أراد قال : لو أننا هبطنا عُسفان لرأى أهل مكة أنَّا قد جئنا مكة ، فخرج فى مائتى راكب من أصحابه حتى نزل عسفان ، ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغا كَرَّاع الغميم ثم كرا ، وراح رسول الله ﷺ قافلاً ، فكان جابر بن عبد الله يقول : «سمعت رسول الله ﷺ يقول حين وجَّه أهل هذه السرية يدعو قائلاً : آيبون تائبون إن شاء الله ، لربنا حامدون . أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الأهل والمال »[1] . والحديث عن غزوة بنى لحيان عن عاصم بن عمر ابن قتادة وعبد الله بن أبى بكر بن مالك . وقال ابن سعد : « فبعث أبا بكر فى عشرة فوارس لتسمع به قريش ، فيذعرونهم ، فأتوا الغميم ثم رجعوا ولم يلقوا أحداً »[2] .

وقد روى الواقدى الخبر ببعض خلاف ، فقال : إن سبب خروج رسول الله لغزو بنى لحيان أنه وجد وجداً شديداً على عاصم بن ثابت وأصحابه ، وكانوا لا يزالون أسرى بيد القرشيين ، وكان الشهر شهر محرم ، فكانوا ينتظرون انسلاخ الشهر ليقتلوهم » ورواية الخبر على هذه الصورة لا تصح ، لأن رسول الله لو كان خرج

(١) هذه السرية لم تؤرخ وقد أسقطها بعض أصحاب المغازى .
(٢) رواه عن ابن سعد ابن سيد الناس فى عيون الأثر ٢/ ٨٣ .

ليستنقذ عاصم بن ثابت وخبيب بن عدى لفعل ، أما أن يجد وجداً شديداً عليهما ثم يكتفى بالوقوف عند عسفان وإرسال بعث صغير إلى كرام الغمام لمجرد إرهاب أهل مكة فتصرف لا يشبه تصرف رسول الله ﷺ ، وإنما الأصح ما يقوله ابن سعد ، وهو أن الغارة كانت وجهتها بنى لحيان ، فلما هربوا أراد رسول الله أن يختبر قوة قريش على رد الفعل ؛ لأنه كان يُقدِّر أنه خارج للعمرة عن قريب .

ويستوقف نظرنا هنا أن قريشاً لم تتحرك ، قعد بها الخوف عن التحرك ، ولا تحرك أحد من أحلافها ، وهذا يفسر لنا كل تصرف الرسول ﷺ فى غزوة الحديبية .. فقد خرج رسول الله وهو يعرف يقيناً أنه يذهب إلى بلد لا حول له ولا طول ، بلد فَقَدَ قوته ووقف عاجزاً لا يملك إلا بقية من عزة النفس ، ولهذا فقد خرج الرسول معتمراً بلا سلاح ، وحتى لو أنه أراد دخول مكة بالقوة فى هذه الحالة لدخل ، بل دهش بعض أصحابه لعدم دخوله ومنهم عمر بن الخطاب ، فلجَّ فى الكلام والاحتجاج حتى كاد يقع فى الخطأ ، والرسول صلوات الله عليه يصبر على ما يقول ولا يزيد على أن يقول : « إنى رسول الله والله لن يضيعنى » . وعندما أخذ الرسول بيعة الرضوان أخذها عندما سمع أن عثمان قد قُتِل ، ولو قتل عثمان لكانت الحرب ، ولكن عثمان لم يُقتل ، فانقضى التفكير فى الحرب ، ثم كانت المفاوضات ، وكان رسول الله فيها كريماً الكرم كله ، حليماً الحلم كله ، وكان أحرص على الحفاظ على كرامة قريش وماء وجهها من زعمائها ، فسلَّم لهم بكل ما رأوا أنه يحفظ لهم احترامهم وسط الناس ، واتفق معهم على أن يعود للعمرة من قابل .

وإذن : فقد كان لابد من هذا الاقتراب من مكة فى المحرم سنة ٦هـ/ يونيو ٦٢٧م. لكى تتم غزوة الحديبية كما تمت فى ذى القعدة من نفس العام / مارس ٦٢٨م. وإن القارىء للسيرة النبوية ليقرأ أن رسول الله قال بعد أن هرب بنو لحيان : لو أنَّا هبطنا عسفان لرأى أهل مكة أنَّا قد جئنا مكة « وكان قد اقترب منها فى مائتين فحسب من أصحابه ومن عسفان يبعث فارسين أو أبا بكر فى عشرة من أصحابه إلى كراع الغميم فلا يلقوا كيداً ، فيأمر بالعودة إلى المدينة وهو يقول : آيبون تائبون ... الخ» .

إن من يقرأ هذه الأخبار دون بصر بالسيرة فى جملتها ودون فهم للشخصية المحمدية لن يرى فى مثل هذا الخبر شيئاً ، وهو كما رأينا تصرُّف من الرسول محسوب مقصود ، إذ ما كان محمد ﷺ ليتحرك حركة مثل هذه دون حساب وتقدير ، وما كان ليقول شيئاً إلا وله معنى فى الصميم ، وهنا فقط نفهم نحن على ضوء التاريخ لماذا دعا محمد فى هذه المناسبة بالذات دعاءه المشهور آيبون تائبون عابدون ، لربنا حامدون ، اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل ، اللهم أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر فى الأهل والمال ، اللهم بلِّغنا بلاغاً صالحاً يبلغ إلى خير ، مغفرة منك ورضواناً » .

هذا الدعاء الذى لم يعرف الواقدى وأصحابه كلهم عنه إلا أن محمداً قاله هنا أول مرة ، إنما قاله محمد ﷺ وبصيرته ترى ماذا يحدث فى عمرة القضية وهى الخروج إلى الحديبية وأداء العمرة ، والأهل والمال هنا هم أهل محمد من قريش ومالهم فى مكة . وكان محمد حريصاً على سلامتهم لأنه يدخرهم للإسلام بعد فتح مكة . فتصور والله نفاذ البصيرة وبُعْد مطارح التفكير والتدبير !

ونعود إلى حديث المواجهة بين القرشيين لنقول : إن تلك الأمثلة الثلاثة التى ضربناها ، تبين لنا الاتجاهات الثلاثة التى سار فيها نشاط المدينة قبل الحديبية ، وهى :

١ - التمهيد للقضاء على مهد العداوة اليهودى الباقى فى خيبر .

٢ - كسر شوكة قبائل الأعراب فى وسط الجزيرة العربية وشمالها ، حتى إذا توجه نحو مكة فعل ذلك دون أن يشغله عن ذلك شاغل أو يهدد المدينة شىء .

٣ - إدخال قبائل الطرق التجارية فى أمة المدينة : إسلاماً أو حلفاً أو موادعة حتى تنفتح طرق المدينة كلها إلى الشمال والشمال الشرقى .

وسنرى مصاديق أخرى على ذلك عند كلامنا على مواجهة القرشيين الحاسمة فى الحديبية .

ونقف هنا لحظة عند سريتى عبد الله بن رواحة للقضاء على أسير بن رِزَام فى خيبر فى رمضان سنة ٦هـ/ يناير - فبراير ٦٢٨م والثانية فى الشهر التالى وهو شوال . الأولى

كانت لاستطلاع أحوال خيبر ودرس أحوال أسير بن رزام فيها ، وأسير كان خليفة أبى رافع بن أبى الحقيق فى زعامة خيبر ، وكان رجلاً شجاعاً جريئاً ، وكان يتحدث فى أن يخرج إلى غطفان فيجمعها ويسير بها لغزو المدينة ، فيصل الخبر إلى رسول الله ﷺ بواسطة خارجة بن حسيل الأشجعى ، وأشجع كانت من صغار قبائل الحجاز التى انضوت تحت ذراع المدينة دون مشقة ، مثلها فى ذلك مثل غفار ومُزَيْنة ، أما خزاعة فلها شأن آخر نتحدث عنه إن شاء الله فى الفقرة التالية ، فيندب الرسول عبد الله بن رواحة فى نفر قليل مستطلعاً ، ثم يرده مرة أخرى فى ثلاثين رجلاً فيقضون عليه .

وأُسَيرُ يُكْتَب فى بعض نصوصنا (اليُسَيْر) وإذن فهو اليعازر وهو اسم يهودى يتردد فى العهد القديم وحوليات اليهود ولا زال مستعملاً إلى اليوم .

والآن ننتقل إلى الحديبية أو عمرة القضية أى عمرة الاتفاق أو المعاهدة كما نقول بلغة اليوم .

غَزوَة الحُدَيبيّة

بَنو عَامِر بن لؤى يَتولوّن قيَادة مَكّة :

خرج رسول الله ﷺ للعمرة فى ذى القعدة سنة ٦هـ/ مارس ٦٢٨م . بناء على تقدير سابق دقيق ، وقد رأينا كيف مهد رسول الله لذلك أثناء غزوته لبنى لحيان ، فاختبر قوة رد فعل قريش ، إذا هى علمت أن المسلمين وصلوا بخيلهم إلى كراع الغميم على أميال شمال مكة ، فلم ير أن قريشاً تحركت أو صدر عنها أىُّ رد فعل فأيقن بضعفها وعجزها عن المقاومة ، ومن ثَمَّ فقد آن أوان أداء العمرة تمهيداً للحج . وسنرى فيما بعد حديثاً لرسول الله ﷺ يؤيد هذا المعنى .

والذى يستوقف نظرنا ، ونحن ندرس قريشاً أن هذه القبيلة التى كانت تقف على رأس قبائل شبه الجزيرة وترتبط مع معظمها بأحلاف واتفاقات ، وقفت الآن وحيدة لا يؤيدها أحد ، ولا تفكر قبيلة مهما بلغ حجمها فى تأييدها ومناصرتها كأنها قد سقطت فجأة من الحساب . وإذا كان المسلمون قد قطعوا خيوطها مع الشمال والشمال الشرقى ، فما بال قبائل الشرق والجنوب : ما بال هوازن وتميم وحنيفة وعبد القيس

وقبائل اليمن وحضر موت وعُمان وكلها كانت تحضر الأسواق ومواسم الحج . بل ما بال الحج قد تضاءل إلى درجة لا تسمع معها عنه ؟ أكانت أسواق مكة تُعقد ؟ أكان موسم الحج يحفل بالناس ؟

هنا لا تنبئنا مراجعنا بشيء ، لأن نظر المؤرخين كله ، اتجه الآن إلى أمة المدينة وأصحاب السيرة على الخصوص ، سقطت قريش من اعتبارهم فلم تعد تُذكر إلا فى مناسبات احتكاك أمة الإسلام بها ، وسيعود ذكر قريش إلى الظهور مع الحديبية ، وهى ميدان المواجهة الكبيرة الأولى بين قريش والإسلام بعد أن انحسم الأمر بينهما أثناء الخندق وبان للناس أجمعين ، أن قريش الإسلام غلبت قريش الجاهلية ، وأن مهاجرى قريش إلى المدينة على قِلَّتهم العددية قد أصبحوا اليوم بفضل الإسلام ومحمد صلوات الله عليه ، قادة الجزيرة وأصحاب الكلمة فيها ، ودامت لهم السبل حتى كان القرشى الواحد من المهاجرين إلى المدينة يمضى إلى الشام بما معه من تجارة ، فإذا اعتدت عليه إحدى القبائل لم يلبث أن ينال المعتدى العقاب الرادع كما حدث فى خروج زيد بن حارثة إلى الشام ومعه تجارة لأصحاب النبى ﷺ فى رجب سنة ٦هـ/ ديسمبر ٦٢٧م ، فلما كان فى منازل بنى فزارة من بنى بدر من غطفان أخذوه فضربوه وضربوا أصحابه حتى ظنوا أنهم قد قُتِلوا ، ولكن زيداً أبَلَّ مما أصابه ولحق بالنبى ﷺ ، فعجل الرسول بإرساله فى سرية إلى هؤلاء القوم ، فأوقع بهم وقعة شديدة وغنم منهم وأسر ، وتلك هى السرية المعروفة بسرية بنى أم قرفة، وكان من أسراهم بنت أم قرفة ، وهى امرأة من فزارة عجوز كانت تسب النبى ﷺ ويبلغه ذلك ، فأخذ سلمة ابن الأكوع ابنتها سبية وقبض المسلمون على العجوز السليطة وقتلوها ، وعندما وصل الجمع المظفر إلى المدينة أخذ الرسول ابنة أم قرفة وأهداها لصاحبه حزن بن أبى وهب فأنجب منها بنتاً ليس له منها ولد غيرها .

حتى ثقيف حليفة قريش وصاحبة الصهر الوثيق معها ، سنرى بعد قليل أنها تراخت عن نصر قريش ، فلم يأت منها لنصر قريش أثناء الحديبية إلا واحد من صغار رجالها هو عروة بن مسعود الثقفى ، وكان حليفاً لقريش ينزل مكة فى جوار

سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف وهى تعد فى عماته [1] ، وقد أتى مع من أطاعه من قومه وهم قليل ، بل إن زعيم الأحابيش ، وهم أوثق أحلاف قريش وأقربهم منزلاً ، وقفوا موقف الحياد بين محمد رسول الله وقريش ، بل إنه طلب إليها أن تأذن لرسول الله ولأصحابه بدخول مكة للاعتمار .

ولكن استجابة الأعراب أو عدم استجابتهم ليست بقياس سليم للتأييد وعدمه ، فالأعراب ، وخاصة صغار قبائلهم معنيون بأمر أنفسهم لا يُعرِّضون أنفسهم لأى مغامرة غير محمودة العواقب ، ومن دلائل ذلك ما يرويه الواقدى من أن الأعراب القريبين من المدينة المعروفين بدخولهم فى حلفها ، عندما رأوا رسول الله ﷺ يخرج إلى مكة معتمراً هو وأصحابه دون سلاح ارتابوا فى الأمر وأيقنوا بأن قريشاً ستقضى عليه وعلى أصحابه ، قال الواقدى : « فجعل رسول الله ﷺ يمر بالأعراب فيما بين مكة والمدينة فيستنفرهم ، فيتشاغلون له بأموالهم وأبنائهم وذراريهم - وهم بنو بكر (بن عبد مناة بن كنانة) ومزينة وجهينة - فيقولون فيما بينهم : أيريد محمد أن يغزو بنا إلى قوم مُعَدين مؤيّدين فى الكراع والسلاح ، وإنما محمد وأصحابه أكلة جزور لن يرجع محمد وأصحابه من سفرهم هذا أبداً ! قوم لا سلاح معهم ولا عدد وإنما يقدم على قوم حديث عهدهم بمن أصيب منهم ببدر »[2] .

وهذا التراخى من جانب بعض الأعراب جعل محمداً ﷺ يحذر البدو طول طريقه، ولقد كان آمناً لخزاعة وبطونها لأنهم حلفاؤه وحلفاء أمة الإسلام ، ثم إن خزاعة - وخاصة بنو كعب - أسلمت ودخلت الإسلام ، وكان بنو المصطلق من خزاعة قد اعوجُّوا على رسول الله ﷺ فكانت غزوة المريسيع ، وبها استقام أمر خزاعة كلها للإسلام وأمته . وما عدا خزاعة فكان الرسول فى ريب منهم . وعندما وصل رسول الله إلى الروحاء ، وهى قريبة جداً من المدينة وفى منطقتها لقى جماعة من بنى نهد بن زيد بن ليث بن عبد مناة (بنى خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر) وبنو عبد مناة جميعاً وخاصة بنو بكر منهم كانوا مباعدين للإسلام وأهله مقاربين لقريش وأهل

---

(١) ابن حزم ، الجمهرة : ٢٦٦ .
(٢) الواقدى ، مغازى ٢/ ٥٧٤ - ٥٧٥ .

الكفر - فدعاهم إلى الإسلام « فلم يستجيبوا له وانقطعوا من الإسلام » [1] .

ثم أرادوا مع ذلك استرضاء الرسول ﷺ فبعثوا عند مرور الرسول قرب ديارهم برجل منهم ، معه لبن هدية ، فأبى قبوله وقال : « لا أقبل هدية مشرك » [2] ، ولكنه أذن لأصحابه فى شراء اللبن فاشتروه وشربوا منه ، ثم أتوا المسلمين بثلاثة أضبّ (جمع ضب) ليبيعوها منهم ، فسأل المسلمون الرسول ﷺ إن كان يحل لهم أن يشتروا ما صاده غيرهم وهم حُرُم ، فقال : « صيد البَرِّ لكم حلال وأنتم حُرُم ما لم تصيدوه أو يُصَد لكم »[3] .

وكان بعض المسلمين قد انتظر بالإحرام حتى يقرب من مكة ، فصاد بعضهم حماراً وحشياً وطبخوه ، ولحقوا برسول الله فعرضوا عليه منه ، وقدموا له ذراعاً فأكلها «حتى أتى على آخرها وهو مُحرِم » لأن المسلمين المحرمين لم يصيدوه ولا صِيدَ لهم ، فأَكْله ليس حراماً على المحرِمين .

وكان ذلك عند الأبواء ، مما يدل على أن رسول الله ﷺ سلك بمن معه الطريق الفرعى ناحية البحر ، وكان يستحبها فى روحاته إلى مكة وعودته إلى المدينة .

وعند ودان - وهى قريبة من الأبواء - أهديت لرسول الله ﷺ هدية أخرى من قوم لم تحددهم المراجع ، ولكن لا شك أنهم من أهل الإسلام لأن الرسول كما رأينا كان لا يقبل هدية مشرك ، والهدية كانت جزراً ومائة شاة وبعيرين يحملان لبناً .

ونحن نقرأ أخبار هذا المسير ونشعر أن رسول الله والمسلمين يسيرون فى أمن وهدأة ، كأنهم لم يعودوا يخشون أحداً فى الحجاز فهم بغير سلاح ، ولكن أحداً لا يعرض لهم أو يجافيهم ، بل إن الهدايا تأتيهم فى كل موضع فيقبلون أو لا يقبلون ، ولا أحد يذكر قريشاً أو يحسب لها حساباً ، ففى ودان هذه أهدى لرسول الله إلى جانب هدية إيياء بن رحضة التى ذكرناها « ثلاثة أشياء : معيشا وعترا وضغابيس ، وجعل رسول الله ﷺ يأكل من الضغابيس والعتر وأعجبه وأمر به فأدخل على أم

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٥٧٥ .
(٢) الواقدى ، مغازى ٢/ ٥٧٥ .
(٣) الواقدى ، مغازى ٢/ ٥٧٥ .

سلمة زوجته ، وجعل رسول الله ﷺ يعجبه هذه الهدية ويرى صاحبها أنها طريفة » ، والمعيش هو الخبز فى الغالب ، والعتر نبات يؤكل ، فإذا طال وقُطِع أصله خرج منه شبه اللبن ، والضغابيس كما فى القاموس جمع ضغبوس وهى صغار القثاء أى أنها الخيار ، واللطيف هنا هو إقبال النبى عليها وحرصه على أن يُرِى صاحبها أنها طريفة .

وعندما يصل رسول الله والذين معه إلى الجُحفة ، قرب رابغ البحر الحالية يحدث شىء غريب ، وهو أنه ﷺ يبعث رجلاً ليأتى بالماء من وادى الخرار غير بعيد من الجحفة . فلا يكاد الرجل يسير قليلاً حتى يدركه الخوف فلا يستطيع أن يتقدم . ويعود إلى رسول الله ويبلِّغه ذلك ، فيبعث غيره فيحدث له مثل ذلك ، فأرسل الرسول رجلاً من أصحابه « وخرج السُّقَّاء معه ، وهم لا يشكون فى الرجوع لما رأوا من رجوع النفر ، فوردوا الخرّار فاستقوا ثم أقبلوا بالماء ، ثم أمر رسول الله بشجرة ، فَقُمَّ (كُنِس) ما تحتها فخطب الناس فقال : أيها الناس إنى كائن لكم فَرَطاً ، وقد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله وسنته بين أيديكم ، ويقال : تركت فيكم كتاب الله وسنة نبيه[1]..» والفرط هو السابق أى المتقدم وقد ورد اللفظ فى حديث رسول الله ﷺ [2] . وحديثه هنا فى موضعه ، لأنه عندما رأى الخوف يستولى على بعض الناس طمأنهم إلى أن لديهم ما إن تمسكوا به لم يخافوا شيئاً : الكتاب والسنة.

والآن والمسلمون فى طريقهم إلى مكة ، أى وقريش المسلمة فى طريقها إلى قريش الكافرة ننتقل إلى معسكر هذه لنرى ماذا صار إليه أمرها .

قُريش قبل الحُدَيبيّة :

من الواضح أن مسير محمد ﷺ والمسلمين نحو مكة أفزع أهلها ، وأحس زعماء القرشيين وخاصة رؤساء كعب بن لؤى وعامر بن لؤى (وفيهما تتمثل المقاومة للإسلام) أن مصيرهم فى الميزان ، فاجتمع زعماؤهم للتشاور فى أمرهم ، وكان زعماؤهم فى ذلك التحرك صفوان بن أمية بن خلف (جمح) وسهيل بن عمرو (عبد

(١) الواقدى ، مغازى ، ٢ / ٥٧٨-٥٧٩ .
(٢) انظر مادة فرط فى لسان العرب ، جـ ٢/ ١٠٧٩ .

شمس) وعكرمة بن أبى جهل (مخزوم) ، واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش وانضم إليهم نفر من الثقفيين . واستقر رأيهم على إرسال فرقة استطلاع من الفرسان تقف عند كراع الغميم ، وجعلوا مركز قيادتهم فى بلدح ، وهو وادٍ يبعد عن مكة بنحو الخمسين كيلومتراً ، والمسافة بين وادى بلدح وكراع الغميم لا تزيد على خمسة عشر كيلومتراً .

وبلغ من اهتمام قريش للأمر أن وضعت نظاماً يضمن وصول الأخبار إليها فى أقصر وقت . وقد وصفه لنا الواقدى بقوله : « ووضعوا العيون على الجبال حتى انتهوا إلى جبل يقال له وزر وزع ، كانت عيونهم عشرة رجال قام عليهم الحكم بن عبد مناف ، يوحى بعضهم إلى بعض بالصوت الخفى : فعل محمد كذا وكذا ! حتى ينتهى ذلك إلى قريش ببلدح . وخرجت قريش إلى بلدح فضربوا بها القباب والأبنية ، وخرجوا بالنساء والصبيان فعسكروا هناك »[1] ، وهذا تنظيم يدل على أن قريشاً لا زالت لها قيادة ذات تنظيم وترتيب وعقل ، وقد قدروا أن يوقفوا محمداً وأصحابه عن هذا الموضع ليكون بينهم حوار وتفاوض بعيداً عن مكة ، ولكن رسول الله ﷺ - لحكمة ارتآها - رأى أن يتخطى هذا الحد وينحدر حتى الحديبية - وهى ليست على الجادة ، أى الطريق الرئيسى إلى مكة ، وإنما هى موضع إلى غربى الطريق إلى الشمال قليلاً من مكة .

ومن الواضح أن قريشاً كانت قد اجتمعت وتشاورت ، فيما ستعمل وهى تشعر تماماً أنها غير قادرة على مقاومة المسلمين. وكان كل غرض هذه القيادة هو الحفاظ على كرامة قريش ومكة وكيانها ، وقد نجحت فى ذلك لأن محمداً ﷺ كان يريد ذلك .

وكان رسول الله ﷺ قد اصطحب معه رجلاً من خزاعة يسمى بُسر بن سفيان الكعبى ، تقول المراجع إنه وفد على المدينة وأسلم على يد الرسول ، ثم أراد الرجوع إلى أهله بمكة فى الغالب فقال له رسول الله : يا بسر ، لا تبرح حتى تخرج معنا ، فإنَّا إن شاء الله معتمرون ، فأقام بسر ، وأمر رسول الله بسر بن سفيان أن يبتاع له بُدْناً ، فكان بُسر يبتاع البُدْن ويبعث بها إلى ذى الجدر ، حتى حضر خروجُه ، فأمر بها

(١)الواقدى ، مغازى ، ١/ ٥٧٩ .

فجلبت إلى المدينة ، ثم أمر بها ناجية بن جُندب الأسلمى أن يُقَدِّمها إلى ذى الحُلَيْفة ، واستعمل على هديه ناجية بن جندب ، وخرج أصحاب رسول الله ﷺ معه لا يشكُّون فى الفتح ، للرؤيا التى رأى رسول الله ﷺ ونلاحظ هنا أن صاحب هدى رسول الله كان خزاعياً ، وأن عينه على كفار قريش كان أسلمياً من بنى الحاف بن قضاعة مما يؤيد ما ذهبنا إليه من ارتباط هذه القبائل بالإسلام ورسوله .

ويختفى بسر بن سفيان الكعبى هذا ثم يظهر مرة أخرى ورسول الله يقترب بمن معه من كراع الغميم ، حيث كانت طليعة قريش وعليها خالد بن الوليد ، وإن كان تدخُّل المزيفين فى النصوص الأصلية يحاول أن يشكك فى أن خالداً كان على رأس خيل المشركين فى ذلك الحين ، بل هناك من يزعمون أنه أسلم مع عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة قبل الحديبية ، وهذا غير صحيح ، وها هنا مثال من تزييف الأخبار أو التدليس فيها ، الذى لا نزال نعانى منه فى كل خطوة من خطوات هذه الدراسة وغيرها مما نتولاه من أبحاث تاريخ الإسلام والمسلمين .

ثم يظهر بُسر بن سفيان الكعبى مرة أخرى بعد أن ضربت قريش خيامها ببلدح . وبعثت طليعتها إلى كراع الغميم . ظهر بسر الكعبى ليقدم لرسول الله صورة الأعداء ومعسكرهم ، فلا يكون ظهوره هنا مجرد مصادفة ، بل هو جساب وتدبير .

وكان رسول الله ترك الكُديد وراءه ووصل إلى غدير الأشطاط فسأله : يا بُسْر ما وراءك ؟ قال : يا رسول الله ، تركتُ قومك ، كعب بن لؤى وعامر بن لؤى ، قد سمعوا بمسيرك ففزعوا وهابوا أن تدخل عليهم عنوة ، وقد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم ، معهم العوذ المطافيل [1] قد لبسوا لك جلد النمور ليصدوك عن المسجد الحرام ، وقد خرجوا إلى بلدح وضربوا بها الأبنية ، وتركت عُمَّارَهم يطعمون الجزر أحابيشهم ومن ضوى إليهم فى دُورهم ، وقدَّموا الخيل عليها خالد بن الوليد ، مائتى فرس ، وهذه خيلهم بالغميم ، وقد وضعوا العيون على الجبال ووضعوا الأرصاد ».

---

(١) العوذ من الإبل جمع عائذ ، وهى التى ولدت ، والمطافيل جمع مطفل وهى التى لها طفل . وهذا كله كناية عن النساء والصبيان .

وهنا يبلغ الرسول ﷺ أصحابه بموقف قريش وإرسالها خالد بن الوليد فى مائتى فارس لمواجهة المسلمين ، ثم يخيِّر المسلمين بين أن يمضوا لوجههم ، فإذا اعترضهم المشركون نازلوهم ، أو يسلكوا طريقاً آخر ويتخطوا القوة القرشية ، فإذا تبعهم من المشركين أحد قضوا عليه . ويأخذ الرسول فى مناقشة أصحابه ، وهنا يضيف أبو هريرة : « فلم أر أحداً كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ . وكانت مشاورته لأصحابه فى الحرب فقط » . والذى يعنينا هنا هو حرص رسول الله على مشاورة أصحابه فى كل ما يعرض لهم من شئون الدنيا ، ولا معنى لقصر المشورة على الحرب فحسب ، لأن شئون الدنيا تشمل الحرب وغير الحرب .

ومن باب الاحتياط ينادى الرسول عباد بن بشر ، ولم تكن خيل المسلمين لتزيد على عشرين ، وكان فيهم فرسان كثيرون ولكن رسول الله ﷺ جعل عبَّاداً على خيل المسلمين ، وكان عبَّاد من فرسان بنى عبد الأشهل الأوسيين ، وكان فارساً مجاهداً من المعدودين من فرسان المسلمين ، وكان أول ثلاثة من كبار فرسان الأنصار ، والثلاثة كلهم من بنى عبد الأشهل ، وهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وعباد بن بشر ، وقد ظهر أمره وسطع أثناء الخندق ، فقد كان قائد الفرقة الطيارة التى وقفت تحت تصرف الرسول ﷺ يبعث بها فى كل مهمة فلا تعود إلا بخير ، وقد استشهد رضى الله عنه فى اليمامة .

ثم صلى رسول الله بأصحابه صلاة الخوف ، وكانت تلك ثانى مرة يصليها فى مغازيه ، فقد صلاها قبل ذلك فى ذات الرقاع وكانت هذه الصلاة الثانية بعسفان .

وكان رسول الله بعد أن شاور أصحابه قد استقر رأيه على أن يتخطى هذه الطليعة من الفرسان التى أرسلتها قريش دون أن يصدمها فيقضى عليها ، فهو لم يخرج لقتال وإنما للعمرة ، وقرر أن يسير بالليل ويكمن للراحة بالنهار ، وتبدر منه هنا بادرة تدل على أنه ﷺ كان يعرف طرق الحجاز معرفة وثيقة ، وقارىء السيرة ودارسها لا يزال يتعجب من معرفة الرسول للأرض والناس . قال لأصحابه : « تيامنوا فى هذا العصَل (أى : الرمل المتموج الملتوى) ، فإن عيون قريش بِمَرِّ الظَّهْران أو بِصَنْجنان ، فأيكم يعرف ثنية ذات الحنظل ؟ » .

ومن الواضح أن هذه الثنية كانت تقع فى طريق صغير يتخطى مخرجُه كُراع الغميم ووادى بَلْدَح ، فيخرج الرسول بمن معه فى الصباح عند موضع الحديبية الذى كان رأيه قد استقر على الوقوف عنده ، والحديبية بُعَيد سرف غرباً إلى الجنوب ، وهى ليست على طريق الجادة وإنما إلى غربها ، ومقابلها من ناحية الشرق التنعيم وهى ميقات حاج الشام . وتطوع بُرَيْدَة بن الحُصَيب الأسلمىُّ (الخزاعى) ليدل الركب على طريق ثنية ذات الحنظل ، وحاول فلم يستطع ، ودهش لأنه كان يسلك طريقها مراراً فى الجمعة الواحدة ، وتطوع أسلُمىٌّ آخر فوقع له ما وقع للأول ، وأخيراً تقدم أسلُمى خزاعى ثالث هو عمرو بن فُهم فسلك بالناس طريقها فى غير عُسْر .

ويستوقف نظرنا هنا معرفة خزاعة بطرق الحجاز ، وهو أمر على أكبر جانب من الأهمية ، ويستوقف نظرنا بعد ذلك ثقة رسول الله فى نفسه وإيمانه الثابت بأنه واصل إلى ما يريد بعون الله إياه . وفى أثناء الطريق - والركب على وشك الوصول إلى حيث يريد رسول الله ، يندس بينهم أعرابى يبحث عن بعير له أضله ودخل العسكر فيما زعم ، وكان رسول الله قد حَذَّر رجاله من مثل هذا الدسيس ، ويدخل الرجل العسكر يبحث عن بعيره فلا يجده ، ونفهم أن البعير الضائع حجة تعلل بها ليدخل العسكر ، وينصرف عنه فيتردى من الجبل ويموت ، وعندما نعلم أنه من ضمرة من بنى بكر بن عبد مناة يتضح لنا أمره ، فهو دسيس جاسوس من بنى بكر بن عبد مناة يَتَنَطَّس أخبار العسكر لحساب قريش فى الغالب ، وهكذا نرى كيف كانت خزاعة دائماً فى جانب الإسلام ورسوله ، وبنو بكر بن عبد مناة بن كنانة دائماً فى جانب قريش وأهل الكفر ، وسيتضح لنا ذلك جلياً فى بقية أخبار الحديبية .

وهنا وقبل أن يصل ركب المسلمين إلى الحديبية ، تبدر من رسول الله بادرتان تزيدان الناس تعلقاً به وإيماناً ، الأولى كشفه الماء الوفير فى موضع بئر جافة لم يكن فيها إلا وَشَل ، فناول الرسول رجلاً من أصحابه يسمى ناجية بن الأعجم سهماً فنزل به وأثار الماء وحفر الأرض فجاش الماء ورَوِىَ الناس ، وشهد ذلك اثنان من المنافقين ، هما عبد الله بن أُبىّ بن سلول والجَد بن قيس ، والأول من بنى الحُبْلَى من الخزرج ، والثانى من بنى سَلمة من الخزرج وحاولا التقليل من شأن ما أجراه الله على يد

رسوله ، وقال ابن أُبَيّ : قد رأيت مثل هذا ! وبلغت الرسول ، فلم يزد على أن قال لابن أُبيّ : يا أبا الحباب ، أين رأيت مثل ما رأيت اليوم ؟ فقال : ما رأيت مثل هذا قط. قال رسول الله ﷺ : فَلِمَ قلتَ ما قلت ؟ فقال ابن أُبَى : أستغفر الله ! قال ابنه : يا رسول الله استغفر له ، فاستغفر له رسول الله ﷺ . وهذا العفو من رسول الله عن ابن أُبَيّ هو البادرة الثانية .

ووصل رسول الله ﷺ إلى حيث كان يريد وهو موضع الحديبية ، وقد تغيرت الآن ملامح الموضع حتى نزوره لنستوثق من صلاحيته للنزول والإقامة فترة طويلة ، ولكننا لا نحس أثناء مقام المسلمين فى الحديبية أنهم فى نقص من ماء أو طعام أو أنهم فى خطر من هجوم أو بيات . حقاً لقد خرج الرسول ومن معه معتمرين بغير سلاح ، ولكن السلاح كان معهم فى مؤخرة الجيش ، حتى إذا دعت إليه الحاجة وجده المسلمون حين يطلبونه ، وكان الذى أشار بذلك سعد بن عبادة بن دُلَيم سيد بنى كعب بن الخزرج بن حارثة الغِطريف ، وهو فى مكان سيد الخزرج جميعاً وإلى الحديبية بل إلى انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى كان هذا الرجل من أعاظم أصحاب رسول الله وأوثقهم إيماناً به وأجودهم رأياً وأسخاهم بماله ، حتى أحس عمر بن الخطاب أنه نِدٌّ له منافس فى الجماعة ، وكان لهذا أثره فيما حدث يوم السقيفة . وفى يوم السقيفة ضاعت جهوده وتضحياته سدى دون ذنب جناه ، وسيكون لذلك بالغ الأثر فى بقية الخزرج جميعاً والأنصار بعد ذلك كما سنرى .

ومن الواضح أن الرسول صلوات الله عليه كان يعتد هنا بتأييد خزاعة جميعها ، قال عنهم الواقدى : (.. وهذا أيضاً رأى كل مؤرخينا الذين نعتمد عليهم) : « وهم عيبة نصح رسول الله ﷺ بتهامة ، منهم المسلم ومنهم المُوَادع ، لا يخفون عليه بتهامة شيئاً : فأناخوا رواحلهم عند رسول الله ﷺ » .

وهنا تبدأ المواجهة بين القريشين : قريش الكفار المسيطرين على مكة وقريش المؤمنين الذين يشتركون فى قيادة أمة الإسلام فى المدينة بتوجيه من رسول الله ﷺ ، بالاشتراك مع الأنصار ما بين أوس وخزرج . وغَنَاء الأنصار هنا عظيم فهم متفانون فى سبيل الدعوة فعلاً ، وأسماء مثل : سعد بن عبادة ، وأُسَيد بن الحضير ، وعبَّاد بن

بشر ، والحُباب بن المنذر ، ومحمد بن مسلمة ، وأخيه محمود ، أسماء كبيرة فى تاريخ الإسلام فى عصر الرسول ﷺ ، ولكن المهاجرين يشفون عليهم - رغم قلة عددهم - فى القيادات - ربما لأنهم أكثر خبرة فى شئون العمل العام ، وربما رجع ذلك أيضاً إلى أنهم كانوا متفرغين للدعوة ، فى حين أن الأنصار كانت لهم إلى جانبها مطالبهم العائلية والقَبَلية فى مدينتهم ، ولهذا كان المهاجرون حريصين على الصدارة مبادرين إلى القيادات ، وخاصة أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وعلى بن أبى طالب وسعد بن وقاص ، وقد كان رسول الله ﷺ منصفاً كل الإنصاف فى تصرفه مع الفريقين ، ولكننا نلحظ هنا بين القرشيين أنفسهم تيارات جانبية ، فأبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد بن أبى وقاص جماعة واحدة ، وعلى بن أبى طالب يكاد أن يكون وحده يؤيده نفر من الأنصار ، وتخفيفاً للمنافسة بين الفريقين كان يتولى قيادة السرايا أحياناً زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ، فهو يقود ثلاث سرايا متوالية ، ثم يقود عبد الرحمن بن عوف سرية دومة الجندل ويعقبه على بن أبى طالب فى سرية إلى فدك ، ثم تعود القيادة إلى زيد بن حارثة فيقود سرية إلى بنى فزارة بن بدر من غطفان ليؤدبهم ، وفى هذه السرية يكون قتل أم قرفة وقد ذكرناها .

ويُسَرُّ الرسول بنصر زيد فهو شديد الحب له ، قالت عائشة رضى الله عنها : «فأتى زيد فقرع الباب ، فقام إليه رسول الله ﷺ يجر ثوبه عرياناً ، ما رأيته عرياناً قبلها ، حتى اعتنقه وقبَّله ثم سأله فأخبره بما ظفره الله به »[1] ولعل كبار الصحابة وجدوا من ذلك شيئاً ، وسنرى مظاهر لذلك فيما سنروى مما وقع أثناء المراحل الأخيرة لمرض الرسول ﷺ وانتقاله إلى الرفيق الأعلى ، وسنشهد بعد قليل أول خزاعى يظهر ويقوم بدوره فى مجرى الحوادث ، وربما لمحنا هنا أول ظواهر التساند بين خزاعة والأنصار ، وهو تساند سيكون له أبعد الأثر فى تاريخ الإسلام ، عندما تنتقل الخلافة انتقالاً حاسماً من بنى أمية إلى بنى العباس ويكون لخزاعة ومواليها ومَنْ أيَّدهم من الأنصار والهاشميين دور حاسم .

هذا الخزاعى هو بُدَيْل بن ورقاء سيد بنى عامر بن لُحَىّ من خزاعة فيما يقول ابن

(١) الواقدى ، معازى ، ٢/ ٥٦٥ .

حزم ، وهو غير مصيب هنا ، لأن صميم خزاعة أو نواتها الأولى على ما ذكرناه فى الحقيقة يمنىٌّ ، مثلهم فى ذلك مثل الأنصار ، أما القول بأن خزاعة هم بنو ملكان وبنو مالك وبنو أسلم بن أفصى بن لحى بن عامر بن قمعة بن الياس بن مضر «ولكنهم تخزعوا » أى انفصلوا عن قومهم وصاروا خزاعة فأمر مفتعل . وقد سبق أن فصَّلنا الكلام فى ذلك فى كلامنا على خزاعة : وقد رجحنا أن نواة خزاعة الأولى من اليمن وأنهم أبناء عم الأوس والخزرج ، لأن الأوس والخزرج هم أولاد ثعلبة العنقاء بن مزيقياء الذى ذكرناه ، فميل خزاعة إلى الأوس والخزرج طبيعى يقويه أن قريش مكة ، قريش التى عادَت الإسلام وأخرجت رسوله وأصحابه من مكة لم تكن قريش بنى هاشم ، وإنما هى قريش بنى عبد شمس ومخزوم وتيم بن عبد مناة وجمح وهصيص ، أى قريش الأحلاف لا قريش حلف الفضول التى هى قريش بنى هاشم وأحلافهم من زهرة بن الحارث بن فهم وتيم بن مرة (قبيلة أبى بكر) وعدى (قبيل عمر بن الخطاب) ، وقريش الأخيرة هذه هى التى هاجر رجالها إلى المدينة وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ، وهذه الهجرة قرَّبت بين قريش بنى هاشم وخزاعة التى سبق أن طردت من مكة مثلهم ، فكأن قريشاً الوثنية التى بقيت فى مكة ورثت كل عداوة خزاعة لقريش التى أخرجتها من مكة ، لا عجب إذن أن نجد خزاعة إلى جانب رسول الله ﷺ والمهاجرين والأنصار أى أهل أمة الإسلام .

ومن ذلك الحين أصبحت خزاعة هاشمية الميول بالضبط ، كما سيصبح الأنصار هاشميين فى عواطفهم وميولهم ، وفى الصراع بين قِسْمَى قريش : قريش التى عادت الإسلام أولاً ثم أسلمت عند الفتح متمثلة فى بنى أمية الأكبر وبنى مخزوم وسهم وجمح وقريش الهاشمية التى آمنت وهاجرت وحملت عبء الإسلام مع الأنصار وخزاعة ، وستنتصر فى أيام الرسول ﷺ وإلى آخر خلافة عمر ، ثم تميل الكفة إلى جانب قريش بنى عبد شمس وأحلافهم من بداية خلافة عثمان ، ثم تكون الدولة الأموية ، ثم تعتدل الكفة مرة أخرى بقيام الدولة العباسية ، وهى ثمرة ثورة هاشمية اشترك فيها الهاشميون وأنصارهم من خزاعة والأنصار ، ثم ستنقسم هذه الجهة المظفرة إلى قسمين : عباسى ينفرد بالسلطة نتيجة لنجاح إبراهيم الإمام بن محمد بن

عبد الله بن عباس فى الانفراد بالأمر دون بقية الهواشم ، ثم بقية بنى هاشم التى خسرت هذه المعركة فستتحول إلى حركة شيعية عامة تضم مذاهب شتى ، وستحوز السلطان فى عصور وأقاليم شتى من بلاد الإسلام ، ولا زالت باقية إلى اليوم .

نعود إلى الحديبية حيث نزل رسول الله ﷺ والمسلمون ، ويقبل عليهم سيد خزاعة بديل بن ورقاء ، فلننظر كيف سيكون موقف هذا الخزاعى بين القُرَيْشَيْـن ، ولا ننسى أن نضيف هنا أن رسول الله لم يكد يستقر فى الحديبية حتى أهدى إليه عمرو بن سالم وبُسر بن سفيان الخزاعيان غنماً وجزوراً ، وأهدى عمر بن سالم لسعد بن عبادة جُزُراً « وكان صديقاً له » وقد قسمت الهدية على المسلمين . ونفهم من هذا أن محمداً ﷺ عندما اختار موضع الحديبية لنزوله عرض مقدماً أن ينزل بين أصدقاء وحلفاء ، وفى هذا الموضع لا تستطيع قريش أو حلفاؤها مهاجمة المسلمين .

دخل بديل بن ورقاء الكعبى الخزاعى على رسول الله ، وبديل هذا يصفه ابن حزم بأنه كان أدهى العرب ، وهو ليس من بنى كعب بن عمرو بن عامر بن لحى أحلاف النبى ولكنه من بنى عدى بن عمرو بن عامر بن لحى [1] وكان حليفاً لقريش مقيماً فى مكة وله دار كبيرة فيها ، فأبلغه أنه يتجه من عند قومه بنى كعب بن لؤى وبنى عامر ابن لؤى وأنهم قد استنفروا الأحابيش ومن أطاعهم ، معهم العُوذُ المطافيل [2] النساء والصبيان - يقسمون بالله لا يُخَلُّون بينك وبين البيت حتى تبيد خضراؤهم »[3] وغريب هنا ذكر عامر بن لؤى ، لأن عمود قريش الذى فيه البيت والعدد ، وتتفرع منه فروعها الكبار هو عمود كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن كنانة بن النضر بن خزيمة ، أما عامر بن لؤى أخوه فلا ذكر له بين فروع قريش ذات العدد والأهمية ، وكل ما يقال هنا هو أن كعباً وعامراً هما البطاح فى رأى المصعب الزبيرى ، أما ابن حزم فيقول : إنهما الصريحان من ولد لؤى بن غالب ، ولكنه يجعل البيت والعدد (أى: القوة والكثرة) فى بنى كعب ، وكلا النسابين لا يذكر لعامر ولداً .

وكان رسول الله يعلم من أمر قريش ما فيه الكفاية ، فقد قال فى رده على بديل -

(١) ابن حزم ، الجمهرة ٢٣٩ .
(٢) تعبير يراد به النساء والأطفال .
(٣) الواقدى ، مغازى ٥٩٣ .

على رواية الواقدى : «إنَّا لم نأت لقتال أحد ، إنما جئنا لنطوف بهذا البيت ، فمن صدَّنا عنه قاتلناه ، وقريش قوم قد أضرَّت بهم الحرب ونَهَكَتْهم فإن شاءوا مادَدْتُهم مدة [1] يأمنون فيها ، ويُخَلُّون فيما بيننا وبين الناس ، والناس أكثر منهم ، فإن ظهر أمرى على الناس كانوا بين أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس : أو يقاتلون وقد جُمِعوا جمعاً ، والله لأجهدن على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى أو ينفذ الله أمره» [2] .وهذا القول من رسول الله يدل على معرفة تامة بأحوال قريش ورغبته فى رد زعمائها إلى الرشد ، وكأنهم هم الآخرون أحسوا منه هذا الرفق بهم فتماسكوا وتشددوا فى موقفهم وإن لم يصلوا إلى المواجهة الكاملة .

وعندما انقلب بديل بن ورقاء عائداً برسالته إلى قريش صَحِبه عمرو بن سالم الخزاعى صديق سعد بن عُبادة ، ومضى يؤكد أن رسول الله على حق ، وأن قريشاً لن تفلح فى موقفها من محمد ما دام هو لا يريد إلا العمرة ويبدى الاستعداد لعقد صلح يُمكِّنه من أداء العمرة بسلام .

ولكن موقف قريش من بديل بن ورقاء وهو صديق لهم وله فى مكة دار كان غريباً يدل على إدراكهم لحقيقة شعور بديل نحوهم ، وإسرافهم فى التظاهر بالثبات : « فقال ناس منهم : هذا بديل وأصحابه ، إنما جاءوا يرون أن يستخيروكم ، فلا تسألوهم عن حرف واحد » كأن الأمر لا يهمهم . « وضاق بديل بعدم سؤالهم إياه عن محمد ﷺ وما يريد فقال : إنَّا جئنا من عند محمد ، أتحبون أن نخبركم ؟ قال عِكرمة بن أبى جهل والحكم بن العاص : لا والله ما لنا حاجة بأن تخبرنا عنه ، ولكن أخبروه عنا أنه لا يدخلها علينا عامه هذا أبداً حتى لا يبقى منا رجل ، فقال عروة بن مسعود ، وهو رجل من ثقيف كان حليفاً للقرشيين وصاحباً لهم : والله ما رأيت كاليوم رأياً أعجب وما تكرهون أن تسمعوا من بديل وأصحابه ؟ فإن أعجبكم أمر قبلتموه ، وإن كرهتم شيئاً تركتموه . لا يفلح قوم فعلوا هذا أبداً » .

---

(١) أى : عقدت معهم عقداً أو عهداً أو اتفاقاً أو هدنة لمدة معينة .

(٢) هذه رواية الواقدى ، مغازى ٢/ ٥٩٣ ؛ أما ابن إسحق ومن نقل عنه كابن هشام ٣/ ٣٢٣ ، وابن كثير ، البداية والنهاية : ٤/ ١٦٥ فيجعلون هذه الكلمة فى عسفان وأنه قالها لبسر بن سفيان الكعبى الذى ذكرناه . ورواية الواقدى أكثر انسجاماً ودقة .

قال رجال من ذوى رأيهم وأشرافهم : صفوان بن أمية والحارث بن هشام (بن المغيرة المخزومى) أخبرونا بالذى رأيتم وسمعتم فأخبروهم بمقالة النبى ﷺ التى قال ، وما عرض على قريش من المدة (الهدنة الموقوتة) .. فعاد عمرو بن مسعود يقول : يا معشر قريش تتهموننى؟ ألستم الوالد وأنا الولد ؟ وقد استنفرت أهل عكاظ لنصركم فلما بلحوا (امتنعوا) علىَّ نفرت إليكم بنفسى وولدى ومن أطاعنى ، فقالوا : قد فعلت . قال : إنى ناصح لكم شفيق عليكم ولا أدخر عنكم نصحاً . وإن بديلاً قد جاءكم بخطة رشد لا يردها أحد أبداً إلا أخذ شراً منها ... فاقبلوها منه وابعثونى حتى آتيكم بمصداقها من عنده ، فبعثته قريش إلى رسول الله ﷺ .

والتفاصيل القبلية التى لدينا عن سفارة عروة بن مسعود الثقفى لا توحى بالثقة ، وشخصية عمرو هذا - كما لاحظنا - فى خطابه لقريش لا تبدو شخصية لها وزن كبير، إنما هو رجل من عامة ثقيف ممن ضوى إلى مكة ، ثم إنه عندما عرض وساطته وعد قريشاً بأن يكون لها عيناً على رسول الله وأصحابه ، وفى الخبر تفاصيل كثيرة عن المغيرة بن شعبة لمجرد أنه كان - فيما يزعم الرواة - كان «قائماً على رأس رسول الله ﷺ» والمغيرة لم يبلغ قط عند رسول الله مثل هذا المبلغ ، وأين هو ممن كان مع رسول الله من أفذاذ الرجال وكبار الصحابة ، وإنما هم الرواة الذين لا يزالون يدفعون بمثل المغيرة فى الأخبار بمناسبة وغير مناسبة حتى ذهبوا إلى أنه كان من بين مَنْ نزل قبر الرسول الأكرم ، بل حاول - فى بعض الأخبار - أن يكون آخر من رأى رسول الله مسجى فى قبره ، وهذا كله انعكاس قصصى نتيجة لما بلغه هذا الرجل من شهرة بالدهاء والقدرة أيام خلافة معاوية بن أبى سفيان .

ويستوقف نظرنا أن الذين يقولون الكلام باسم المشركين فى الحديبية ليسوا من بنى عبد مناف ، أى : ليسوا من عمود نسب قريش الذى فيه البيت والعدد : عمود عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة ، بل عمود عامر بن لؤى : يمثلهم سهيل بن عمرو ابن معيص بن عامر ، وأحلافهم بنى جمح بن هصيص بن كعب بن لؤى يمثلهم صفوان بن أمية بن خلف الجمحى ، وجمح خارجة عن عمود النسب القرشى مثلها فى ذلك مثل أختها سهم بن هصيص رهط عمرو بن العاص - فأين بنو عبد شمس وأحلافهم ممن كانوا إلى الآن يقولون الكلام باسم قريش ؟

نلاحظ هنا أن أبا سفيان صخر بن حرب بن أمية زعيم قريش بعد أبى جهل يختفى ، فلا يكون له أثر فى الحديبية ولن تكون له يد فيما فعلته قريش من كسر الهدنة مع المدينة بمعاونة بنى بكر بن عبد مناة أحلافهم فى عُدوانهم على بنى كعب الخزاعيين أحلاف الرسول ﷺ ، وبنو عامر بن لؤى كانوا قبيلة صغيرة من قريش ويَعُدُّهم المصعب الزبيرى من بيوتات قريش . ويفرد لأنسابهم باباً [1] ولكننا وعندما نقرأ هذا الباب نجد أن بنى عامر بن لؤى بعيدون بُعْداً واضحاً عن عمود نسب قريش ، فمعظم أصهارهم من قبائل فهر وجذيمة بن مالك بن حسل والعَضْل (أو عَضَل) ابن الديش بن الهون ، وهذه ثلاث بطون من الأحابيش يضاف إليها الحيا والمصطلق من خزاعة . ونسب بنى عامر بن لؤى مع خزاعة كبير ، فكأن بنى عامر بن لؤى كانوا يقفون بعيداً عن صميم قريش يؤيدهم بعض فروع قريش من غير عمود النسب الرئيسى مثل : جمح بن عمرة بن هصيص ، وزعيماهم صفوان بن أمية بن خلف وسهيل بن عمرو زعيم عامر بن لؤى ، وهما اللذان سيتوليان الكلام باسم مكة فى الحديبية .

وستبدر منهما بوادر الجلافة والنعرة القرشية التى سيتغاضى عنها الرسول ، لأنه كان يقصد إلى عقد العهد لكى يُتم عُمرَته من قابل ، ويبدو بوضوح أن أبا سفيان وقومَه من بنى عبد شمس تركوا هذا الفريق من قريش يجربون حظهم فى الرياسة ، فعقدوا صلح الحديبية ، بفضل الرسول وحلمه لا بفضلهم ، ثم عجزوا عن الوفاء بالعهد ، فكان أن قرر الرسول فتح مكة ، ومن ذلك الحين يعود أبو سفيان إلى قيادة قريش ، فيقودها بحذر ويجنِّبُها الصدام مع أمة الإسلام فتظل لها وحدتها وشخصيتها، وتدخل الإسلام دون هزيمة أو مهانة كما سنرى ، فكانت قيادة بنى عامر بن لؤى قصيرة غير مُوفَّقة كما سنرى .

وتذهب الرواية إلى أن عمرو بن مسعود الثقفى بدأ كلامه مع رسول الله بمثل ما بدأ به بديل بن ورقاء ، ثم يقول عبارة نجدها بالمعنى عند معظم رواتنا وإن اختلفت لفظاً . ونتابع رواية الواقدى فهى أكثر تفصيلاً ، قال عروة بن مسعود الثقفى مخاطباً

---

(١) نسب قريش للمصعب الزبيرى ، ص ٤١٢ وما بعدها .

الرسول : « يا محمد إنى تركت قومك ، كعب بن لؤى وعامر بن لؤى على أعداد[1] ماء الحديبية معهم العُوَّذ المطافيل ، قد استنفروا لك أحابيشهم ومن أطاعهم ، وهم يُقسمون بالله لا يخلون بينك وبين البيت حتى تجتاحهم . وإنما أنت من قتالهم بين أحد أمرين : أن تجتاح قومك ، ولم نسمع برجل اجتاح أصله قبلك ، أو بين أن يخذِلك من نرى معك ، فإنى لا أرى معك إلا أوباشاً من الناس لا أعرفهم من وجوههم ولا أنسابهم » ، فغضب أبو بكر الصديق رضى الله عنه وقال : امصص بظر اللات ! أنحن نخذله ! وفى عبارة ابن هشام عن ابن إسحاق جملة تفسر لنا لماذا قال أبو بكر : «أنحن نخذله ! » وهى قول عروة بن مسعود : « وأيم الله ، لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً » [2] وهذا كله كلام نتوقف عن قبوله لأننا نقرأ بعد ذلك أن أبا بكر الصديق سبق له أن أعان عروة بن مسعود فى حمل دية ، فأعانه الرجل بالفريضتين والثلاث وأعانه أبو بكر بعشر فرائض ، والفريضة هنا هى الناقة أو الجمل فى الدية ، فكيف يكون هذا صنيع أبى بكر مع عروة ثم يضعه فى الأوباش أو الأوشاب الذين لا يعرف وجوههم ولا أنسابهم ؟

ولم يعلق رسول الله على هذا بشىء ، وإنما هو قال لعروة نفس ما قاله لبُديل : أى أنه معتمرٌ غير مقاتل ، وأنه قد أتى بالهدى لينحره ، وكل ما سيفعله هو أنه سيدخل مع أصحابه ويطوفون بالبيت ثم ينحرون الهَدْىَ ويعودون وقد قضوا عمرتهم . وفى العرف الذى كان جارياً بين قريش وعامة العرب أنهم لا يمنعون عن البيت حاجاً أو معتمراً أياً كانت ظروف السياسة بينهم وبينه .

وعندما يعود عروة إلى قريش يتحدث إلى رجالها حديث رجل قد بَهَرَه ما رأى من هيبة رسول الله ﷺ بين أصحابه ، وطاعتهم له ومحبتهم فيه ثم انتظامهم وحسن سَمْتهم ، وهذا هو الذى ذكرناه آنفاً من أن رسول الله أدخل فى جماعته نظاماً عظيماً وسمتاً جليلاً وروحاً من اتحاد الصف والتآخى والتفانى لم يعرفه العرب من قبل ، وهذا ما بهر نظر عروة وجعله يغيِّر رأيه وينصح قريشاً بالاستجابة إلى ما يطلبه

---

(١) الأعداد جمع عد ، بكسر العين ، وهو الماء الذى له مادة لا تنقطع كماء العين والبئر ، وهذا يؤكد ما قلناه عن حسن اختيار رسول الله لمكان نزوله عند الحديبية

(٢) ابن هشام ، السيرة ٣/ ٢٧ .

الرسول ، قال : « يا قوم ، إنى قد وفدت على الملوك ، على كسرى وهرقل والنجاشى ، وإنى والله ما رأيت ملكاً قط أطوع فيمن هو بين ظهرانيه من محمد فى أصحابه . والله ما يَشدُّون إليه النظر، وما يرفعون عنده الصوت ، وما يكفيه إلا أن يشير إلى أمر فيُفْعل ... »[1] .

وختم كلامه قائلاً : « والله لقد رأيتُ نُسَيَّات معه إن كن ليسلمنه أبداً على أى حال، فَرَوْا رأيكم ، وإياكم واضْطجاع الرأى [2] ، وقد عرض عليكم خطة فاقبلوه [3] ! ياقوم : اقبلوا ما عَرَض فإننى لكم ناصح ، مع أنى أخاف ألا تُنْصَروا عليه ! رجل أتى هذا البيت معظماً له ، معه الهدىُ ينحره وينصرف . فقالت قريش : لا تكلَّم بهذا يا أبا يعفور ! لو غَيْرُك تكلم بهذا لَلُمْناه ، ولكن نرده عن البيت فى عامنا هذا ، ويرجع إلى قابل »[4] .

وواضح من نهاية هذا النص أن القرشيين هم الذين اخترعوا ذلك الحل الوسط فقد كان الرسول ﷺ يريد أن يدخل مكة معتمراً ذلك العام ، وكانت قريش تقول لا يدخل قط ، وعندما أخذوا فكرة واضحة عن موقفهم ، وتبيَّنوا صدق عزيمة محمد وأصحابه وقُدْرَتهم على دخول مكة بالقوة إذا أرادوا اخترعوا هذا الرأى الوسط الذى يُرضى الطرفين : إنهم يُظهرون بهذا أمام الناس أنهم لم يرضخوا لما أراد المسلمون ولم يخافوا أمامهم ، وكذلك المسلمون يعودون هذا العام إلى المدينة ثم يعتمرون فى العام القادم ، وسيرفض المسلمون هذا الحل لأنهم خرجوا للعمرة ولا بد أن يدخلوا مكة ليعتمروا ، ولكن الرسول رأى ببُعد نظره أن الرأى الذى تعرضه قريش لا بأس به إذا ارتبط باتفاق هدنة توقف أثناءها الحرب وتنفتح الطرق بين مكة والمدينة ، فيقبل أهل مكة على الإسلام ويصغر حجم أعداء الإسلام من زعماء القرشيين ، ويتمهد الطريق لفتح مكة دون قتال ، وهذا - آخر الأمر - ما كان رسول الله ﷺ يرجوه ، وإن لم يتفطن إليه المسلمون وغير المسلمين إلا فيما بعد .

---

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٥٩٨ .
(٢) أى : التلكؤ فيه .
(٣) أى : اعقدوا معه هدنة أو صلحاً لمدة معينة .
(٤) الواقدى ، مغازى : ٥٩٨ - ٥٩٩ .

ثم يظهر على المسرح مكرز بن حفص بن الأخيَف ، وهو من سادات بنى عامر بن لؤى ، من بنى معيص ، وكان رسول الله يعرفه كما يعرف كل قرشى فقال عندما رآه : إن هذا رجل غادر ! وقال له مثل ما قال لصاحبيه ، ثم يختفى مكرز دون أن يفعل شيئاً كأنه لم يجىء ، ومن الواضح أنه وفد عيناً أو جاسوساً لقريش . وتفطن الرسول لأمره ، ثم جاء الحُليس بن علقمة بن عمرو بن الأوقح وهو يومئذ سيد الأحابيش أكبر حلفاء قريش ، ومن الواضح أن قريشاً رغم تظاهرها بالثبات كان ينتابها القلق من هذه القوة التى استقرت على أبواب دارها ، وهى لا تعلم ما تريد بها ، ولا تملك من القوة ما تدفعها بها إذا أرادت شيئاً ، فهى ترسل الرجل تلو الرجل ليستوضح لها الأمر ، وهؤلاء الذين يذكرهم الرواة هم الظاهرون المعروفون ، ولا بد أنه كان هناك جواسيس أُخَر طافوا بالمسلمين وحذروهم ونقلوا ما استطاعوا نقله إلى قريش من المعلومات عنهم ، والحليس كان من بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، وكان الرسول يعرفه ، فقد كان سيد الأحابيش، وهم مجموعة قبائل صغيرة من بنى الحارث ابن عبد مناة من كنانة بن قيس عيلان بن مضر مثل الديش والقارة والهون .

وكان بنو عبد مناة بن كنانة منهم يخدمون الحجاج ويحرسونهم لقاء جُعْل ، ولهذا قال الرسول ﷺ عن الحليس حين رآه قادماً إنه فى قوم يعظمون الهدى ويتألهون ومعناه هنا يحترمون الحجاج والمعتمرين ، ولهذا طلب إلى أصحابه أن يبعثوا فى وجهه الهدى أى الجمال والشياه والأعناز التى تخصص للتضحية بها إتماماً للعمرة ففعلوا ، وكانت تلك الحيوانات قد هزلت وساء حالها لطول بقائها مقيدة محبوسة وتساقط شعرها ، فلما رأى الحليس ذلك عزَّ عليه لأنه هو وقومه يتكسبون من خدمة الحاج والمعتمر ، وهم الذين يصيبون معظم لحوم الأضاحى ، ثم إنه سمع المسلمين يضجون بالتلبية مما يؤكد أنهم عمار البيت ، ولم تعد له حاجة بعد ذلك للحديث مع رسول الله فقد أصبحت القضية قضيته ، خاصة والأحابيش كانوا على علاقة صهر وثيقة مع بنى عامر بن لؤى وأحلافهم الذين يتزعمون قريشاً الآن .

فهؤلاء فيما رأى عمار من حقهم أن يطوفوا بالبيت ، ومن حقه وحق جماعته أن يصيبوا منهم ما يتيسر لهم من الرزق ، أما منعهم من الاعتمار فيضر بمصالح

الأحابيش ، فعاد مسرعاً إلى قريش ليقول لرجالها إنهم لا ينصفون إذ يصدون الناس عن البيت ويقطعون أرزاق الحجاج والعمار ، وهذا يخالف ما عاهَدَت قريش الأحابيش عليه ، وهكذا نرى كيف كان رسول الله بالغ الفطنة والصدق وسَعَة الأفق فهو يجرد قريشاً من حججها وأنصارها ، كل ذلك وهو يعلم ما يعلم من ضَعفِها وقلة حيلة رجالها إذ ذاك .

وقد خاطب الحليس القرشيين خطابَ رجل يدافع عن مصالح قومه ، وقال فى نهاية كلامه : « والله الذى نفسى بيده لَتُخَلُّن بينه وبين ما جاء له أو لأَنْفِرن بالأحابيش نفرةَ رجل واحد » . فردوا عليه قائلين : « إنما كل ما رأيت مكيدة من محمد وأصحابه، فاكفف عنا حتى نأخذ لأنفسنا بعض ما نرضى به » .

فلما استوثق رسول الله من أن قريشاً قد جُرِّدت من آخر من بقى لها من أنصارها ، تحرك للاتصال برجالها مباشرة وهو يعلم تماماً علام استقر رأيهم ، ولم يكن عنده مانع من قبوله ، ولكن كان لا بد لتثبيت ذلك من أن تقر به قريش صراحة وترتبط به على رؤوس الأشهاد ، لا يتم ذلك إلا عن طريق مفاوضات مفتوحة .

وبدأ رسول الله ﷺ فأرسل رجلاً من خزاعة يسمى خراش بن أمية الكعبى على جمل لرسول الله ﷺ ، فما كاد يُبَلِّغُهم الرسالة حتى نفروا فى وجهه وعقروا جمله وكادوا يقتلونه ، فعاد الخزاعى وهو لا يصدق بالنجاة ، وطلب إلى رسول الله أن يبعث رجلاً « أمنع منه » فكلم الرسول فى ذلك عمر ، ولكن عمر قدَّر أن قريشاً لا بد معتدية عليه ، فاعتذر عن عدم القدرة على القيام بالمهمة ورشح عثمان بن عفان ، وكان عثمان رجلاً محترماً من القرشيين وله فيهم قرابة قوية تمنعه ، وهذا يدلنا على أن قريش الكفار فى مكة كان فيهم عصب ينزع إلى بنى عبد شمس ، ولا يزال عرق العصبية ينزع بكتلة قريش - فيما عدا بنى هاشم - حتى ألقى الخلافة كلها بين يديها فى ردة قبلية عصبية هى بلا شك نتيجة هذا الموقف المتشدد المعادى لبنى هاشم ، وهم عترة الإسلام وأهله وبيته .

ولا نستغرب والحالة هذه أن قريشاً تتشدد فى موقفها كأنها أَنِسَتْ فى عثمان عطفاً

عليها : عرض عليهم عثمان أن يدخلوا فى الإسلام فرفضوا ذلك ، ثم ردد عليهم ما قاله رسول الله ﷺ آنفاً من أن تدع قريش عداءها لمحمد وتدع ذلك لمن هو أقوى منها من قبائل العرب ، فإذا انتصر محمد كان هذا نصراً لهم ، إذ هم قرشيون مثله ودخلوا فيما يدخل فيه الناس أو يقاتلون إذا أحبوا ، وهم وافرون جامُّون - أى مستريحون - « وأضاف إن الحرب نهكتكم وأذهبت بالأماثل منكم ، وأخرى : إن رسول الله ﷺ يخبركم أنه لم يأت لقتال أحد ، إنما جاء معتمراً معه الهَدْى عليه القلائد ، ينحره وينصرف » [1] وأعاد عثمان هذا الكلام على كل من لقى من كبار القرشيين دون جدوى . وجدير بالملاحظة هنا أن عثمان يتكلم هنا بلسانه لا باسم المسلمين - وكان هذا هو الأمثل ، فهو من كبار أعلام أمة الإسلام ، أما أن يقول لهم أن رسول الله يقول لكم كذا وكذا - كما تزعم بعض المراجع - فحيدة لا ندرى ماذا نقول فيها ، والذى يهمنا هنا أن وساطة عثمان انتهت عند ذلك ، وأجاره ابن عمه أبان بن سعيد ابن العاص .

ولكن عثمان لقى فى مكة جماعات من المسلمين مستضعفين تحت سطوة زعماء قريش ، وقد بعث نزول رسول الله بالحديبية الأمل فى نفوسهم ، وقال بعضهم : « اقرأ على رسول الله منا السلام ، إن الذى أنزله بالحديبية لقادر أن يدخله بطن مكة !» وكان على عثمان أن يعود إلى رسول الله فيبلغه نتيجة مسعاه ، ولكنه لم يفعل، فكان ذلك باعثاً للمسلمين على إساءة الظن فيه ، فحسبوا أنه انفرد بالطواف والعمرة وحده، ولكن تبين بعد ذلك أنه لم يفعل .

وأحس رسول الله ﷺ أن الموقف يتطور وأن قريشاً عندما رأت الحسنى واللين طمعت وتشددت ، فأخذ فى الاستعداد للموقف بما يناسبه ، وقد عرفنا رسول الله فى حياته كلها مبادراً إلى العمل ، لا يدع الظروف تقود جماعته أبداً ، بل هو الذى يقود الأحداث ويجعل جماعته سيدة الموقف أبداً ، وأمثال هذه الخصال المحمدية ورثها عنه رجاله الأماثل من طبقة أبى بكر وعمر وعلى وأبى عبيدة ، وانظر مثلاً إلى أبى عبيدة فى فتوح الشام ، وكيف لم يدع المبادرة تفوته أبداً ، وكأنه رضى الله عنه شهاب

(١) الواقدى ، مغازى ٢ / ٦٠١ .

لا يهمد ، فمن حمص إلى بُصْرى إلى فِحْل وبَيْسَان ثم إلى اليرموك حيث يتمم النصر على ما نعلم ، فإذا لم يكن الرسول صلوات الله عليه قد لقبه بأمين هذه الأمة ، فهو والله أمينها بإيمانه وتفانيه وما تعلَّم على يدى رسوله الكريم ، وهذا هو ما يفوتنا اليوم فى صراعنا للأمم : لا نستقتل قط دون خروج زمام أمورنا فى بلادنا من أيدينا ، بل ندع الزمام يفلت ونعود على الناس بالمَلاَمة ، وقد كانت أجيالنا السالفة فى عصور الهزيمة تلقى كل اللوم على الدهر لأنهم كانوا أقلَّ من تحمل المسئولية .

وكان رسول الله يأمر أصحابه بأن يتحارسوا بالحديبية ، فلما اشتد الأمر أقام ثلاثة من أصحاب البأس والإيمان واليقظة من أصحابه على الحراسة ، وهم أوس بن خَوْلى وعباد بن بشر ومحمد بن مسلمة ، والثلاثة من أفذاذ الرجال وقد مررنا بهم فى أطواء هذه الدراسة مرة بعد أخرى ، فحدث أن قريشاً أرسلت خمسين رجلاً ذات ليلة ليطوفوا بالمسلمين لعلهم يجدون فرصة ، وكان على رأسهم مِكْرَز بن أبى حفص بن الأخيف بن علقمة من سادة بنى عامر بن لـؤى الذى سبق أن حاول التجسس لقريش ، فما كان من محمد بن مسلمة إلا أن أخذ الخمسين رجلاً كلهم أسرى ، فكان هذا العمل الرائع من محمد بن مسلمة عملاً حاسماً رد قريشاً إلى رشدها وأرغمها على أن تفتح عينيها وترى الموقف على حقيقته .

ذلك أن المكيين كانوا قد ظنوا أنهم يمسكون عثمان رهينة ، وكان نفر من أصحاب رسول الله ﷺ قد استأذنوا رسول الله فى زيارة مكة فى أمان قبائلهم ، فأذن لهم فأمسكت بهم قريش وحسبت أنها تساوم عليهم ، ويستوقف نظرنا أن معظم هذا النفر كانوا من بيوت حلف لَعَقَة الدم المُناهِضِين لبنى هاشم ، كأنهم كانوا يشعرون أن تلك العصبية المناهضة لبنى هاشم تنفعهم حتى فى موقف كهذا . وهؤلاء النفر هم : كُرز بن جابر الفهرى (من فهر) وعبد الله بن سهيل بن عمرو (عبد شمس) ، وعياش بن أبى ربيعة (مخزوم) وهشام بن العاص بن وائل (سهم بن عمرو بن هصيص) وحاطب بن أبى بلتعة (من لخم هو حليف بنى أسد بن عبد العُزَّى وهو صاحب الحادث المعروف قبيل بدر) وأبو حاطب عمرو بن عبد شمس (من بنى عامر بن لؤى) وعبد الله بن حذافة (بنو سهم) وأبو الروم بن عمير (من بنى عبد

الدار بن قصى) وعمير بن وهب الجمحى وعبد الله بن أبى أمية بن وهب حليف سهيل بن عمرو .

أليس هذا أمراً يستوقف النظر ؟ أن تظل رابطة المنفعة التى ربطت هذه البيوت من قريش المعادية لبنى هاشم والإسلام ، قائمة يخفت صوتها عندما يجىء الإسلام فيصبح صوتها لا يكاد يُسمع إلى جانب جهارة صوت الإسلام ، لترتفع مرة أخرى عندما يتولى واحد منها الخلافة (هو عثمان) تجد طريقها إلى الظهور ، وتدب دبيب الأفعى مخادعة للناس دون علم الخليفة الشهيد ذى النورين .

ونعود إلى الجماعة الذين أسرهم ذلك الصحابى الهمام الذى لم نقدره قدره وهو محمد بن مسلمة ، فنقول : إن وقوع الخمسين قرشياً أسرى بأيدى رسول الله وأصحابه ردَّ قريشاً إلى عقلها فسعت إلى التفاهم مع رسول الله لتجنب نفسها وقومها أذى كان رسول الله يرجو أن يتداركها الله منه برحمته ومحكم تدبيره ، وقد فعل !

وهنا وقد وقع خمسون رجلاً من قريش فى يد المسلمين تُبْدِى قريش رغبة فى التفاهم ، وترسل رسولاً يقول إنهم مستعدون لإطلاق سراح مَنْ عندهم من أصحاب رسول الله فى مقابل إطلاق رسول الله لمن وقعوا فى أسره . ويكون رسول الله إذ ذاك قد بادر إلى أخذ بيعة أصحابه على القتال . وهنا يتجلى لنا حرص رسول الله على أن يكون تصرفه فى كل ما يتصل بأمور الجماعة الدنيوية قائماً على مشورتها وصادراً عن رأيها ، وكان الرسول صلوات الله عليه يستطيع أن يفترض - وهو محقٌّ لو فعل ذلك - أن المسلمين موافقون على ما يفعل ، ولكن الرسول هنا يقر مبدأ ويسير على قاعدة أساسية ، وهو أن الرأى فيما أهمَّ المسلمين من أمور دنياهم شورى بينهم ، وهو يتمسك بذلك لأنه ﷺ كان يعرف أنه قدوة لأصحابه ولمن يجىء من المسلمين من بعده ، فهو هنا يقرر قاعدة الشورى .

لقد خرج من المدينة للعمرة ، وقال لأصحابه ذلك ، والآن تغير الموقف وأصبح هناك احتمال حرب ، فلا بد أن يؤخذ رأى المسلمين ، فمن يريد أن يحارب حارب ومن لم يرد يستطيع أن يفعل ما يريد ، وهذا هو المعنى العظيم الذى تتضمنه بيعة الرضوان ، فهى ليست مجرد أخذ موافقة المسلمين على حرب محتملة ، وإنما هى إقرار

لمبدأ أراد الرسول أن يكون قاعدة من قواعد العمل فى أمته ، وهو مبدأ شورى الجماعة ، وقد سبق لرسول الله أن فعل ذلك عندما خرج إلى بدر ، فقد خرج وخرج الناس معه على أنهم يستولون على عير لقريش .

وعندما وصل الرسول إلى قرب سهل بدر ، وبدا له الشر من ناحية القرشيين وجد أن الموقف تغير ، فعقد مجلس شورى وطلب للناس أن يقولوا رأيهم بكامل حريتهم ، وكان عهد بيعة العقبة الثانية يلزم المسلمين جميعاً بالقتال فى حالة الدفاع عن المدينة فحسب ، وتأكد هذا فى الصحيفة التى عاهد الرسول فيها المهاجرين والأنصار ، أما الآن ومعه نفر من الأنصار فلا بد أن يُسْتَفْتَوا ما دام الأمر يتضمن تغييراً فى شروط اتفاق وقاعدة جارية للعمل ، وقد أدرك أهل المدينة من أصحاب الرسول الذين خرجوا معه إلى بدر أنهم المعنيون بذلك ، وردّ الرسول بأنه بالفعل يعنيهم ويسألهم رأيهم فى تغيير نصوص الاتفاق والقتال معه خارج المدينة وفى موقف ليس موقف دفاع وإنما هو موقف إعزاز لدين الله وكسر لشوكة الكفر وأهله ، فلما أيد الأنصار هذا المبدأ وأبدوا عظيم رغبتهم فى نصرة الدين ، قرر الرسول القتال برأى الجماعة .

ونحن نسجل هنا هذا الموقف ونقرر هذه الحقائق ليرى المسلمون أنهم يزعمون لأنفسهم أنهم يقتدون برسولهم حق القدوة ، ولكنهم فى الحقيقة لا يطبقونها ، فلم نر أحداً من فقهائنا السابقين درس موضوع الشورى وقرر أنه سنة ثابتة وواجبة ، فهذه هى الشورى يطبقها الرسول ﷺ تطبيقاً سلمياً مرة بعد أخرى ، ثم يزعم بعض الناس أننا تعلمناها من الغرب وها هى منصوص عليها فى القرآن الكريم ومطبَّقة أحسن التطبيق على يد رسوله ، ولو أننا التزمنا قرآننا وسنة نبينا لما سبقنا على وجه هذه الأرض أحد إلى علم أو فضل أو وجه من وجوه السَّبْق والقوة والتقدم ، ولكننا التزمنا بالسنة فى صغار الأمور فى الغالب ونسيناها فى عظائمها .

وجلس رسول الله تحت شجرة الرضوان المشهورة فى السيرة يتلقى بيعة الناس ، وكانوا قد أقبلوا عليها فرحين مستبشرين ، فلما رأى ذلك رجال قريش من أمثال سهيل بن عمرو بن عبد ود بن عبد شمس سيد بنى عامر بن لؤى وحويطب بن عبد العزى من بنى عامر بن لؤى أيضاً «اشتد رعبهم وخوفهم وأسرعوا إلى القضية »[1] .

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٦٠٤ .

ويستلفت النظر من أخبار استعداد المسلمين للفداء استجابة لما طلبه إليهم رسول الله ﷺ خبرٌ ترويه أم عمار الأنصارية عن نفسها ، وهي نسيبة بنت كعب بن عمرو من بنى مازن بن النجار ، وهى صحابية صادقة باسلة لها مواقف كثيرة فى الدفاع عن الإسلام وكان لها موقف مشهور فى معركة أُحُد ، بل ستشترك فى حروب الردة وتخوض معركة اليمامة وتصاب يومئذ باثنى عشر جرحاً ، قالت عن حماس المسلمين للقتال يومئذ : « فكأنى أنظر إلى المسلمين قد تلبسوا السلاح ، وهو معنا قليل إنما خرجنا عُمَّاراً ، فأنا أنظر إلى غُزَيَّة بن عمرو وقد توشح بالسيف فقمت إلى عمود كنا نستظل به فأخذته فى يدى ومعى سكين قد شددته فى وسطى ، فقلت : إن دنا منى أحد رجوتُ أن أقتله » .

فلما رأت قريش ذلك أطلقت مَنْ عندها من المسلمين وفيهم عثمان ، وأطلق الرسول مَن عنده من أسراهم ، ورأت قريش أنها لن تستطيع شيئاً حيال المسلمين ، وأنَّ الأمر إذا استمر على ذلك لم تُحْمَد مَغَبَّته ، فإن المسلمين لن يصبروا على ذلك الموقف طويلاً فسارعت واجتمعت وتشاورت . وانتهى رأى رجالها فى دار الندوة إلى قبول ما عرضه عليها رسول الله ويقول هنا الواقدى : « فقال أهل الرأى منهم : ليس خير من أن نصالح محمداً على أن ينصرف عنا عامه هذا ويرجع من قابل ، فيقيم ثلاثة وينحر هَدْيه وينصرف ويقيم ببلدنا ولا يدخل علينا . فأجمعوا على ذلك» .

وقد أشرنا إلى أن زعماء قريش كانوا على هذا الرأى منذ حين ، ولكنهم الآن وقد أحسوا فعلاً أن المسلمين سيجتاحونهم إذا شاءوا وأنه لا يمنعهم من ذلك إلا حلم رسول الله ورغبته فى تجنيب مكة - وفيها قومه - هذا المصير بادروا ، إلى الإجابة ، وكان اجتماعهم وتشاورهم واتخاذهم هذا القرار دون أن يقع بينهم خلاف يُذكر ، مما يدل على أن زعامة قريش لا زالت حتى ذلك الحين زعامة حقيقية حازمة منظمة ، فلم يَحْدُث مثل هذا التعقل والتفكير والتدبير عندما قرر الرسول إدخال ثقيف والطائف فى الإسلام ، إنما كانت حرب وحصار ، ثم رأت ثقيف أن الهزيمة تحل بها فاستسلمت.

أما ما فعلت قبائل مثل غطفان وتميم فليس فيه أى تدبير أو إجماع رأى ، ففى حالة

غطفان لا نسمع بزعيم منهم له رأى إلا عُيَينة بن حصن الفزارى ، ومع ذلك فقد كان رجلاً قلقاً طائشاً لا يثبت على حال ، وكان إلى جانب ذلك منافقاً متقلباً يلقى الرسول يوماً ويحاربه بعد ذلك ، ولم يحسب الرسول له كبير حساب ، لأن رسول الله كان ينظر إلى بقية غطفان ويريد كسبها إلى الإسلام ولم ير أن يأخذها بجريرة شيخها الطائش ، فتغاضى عنه حتى لا يغضب قومه ويسهل دخولهم الإسلام بعد ذلك ، وهو لم يستخدم القوة مع غطفان ، إنما هو قضى على مركز قوتها الحضارى وهو خيبر ، فانفرط عقد غطفان ، ودخلت فى الإسلام أرسالاً ودخل عيينة فى عداد من يأتمرون بأمر الرسول دون أن تكون له فيه كبير ثقة ، وأما تميم فلم تكن لها جماعة موحدة أو رؤساء متحدون ولا رأى يُعتز به ، إنما هم كانوا قبيلاً ضخماً من الأعراب لا يملكون إلا غروراً ناشئاً عن جهل ، فلما جاء دورهم أرسل عليهم الرسول مثيلهم عيينة بن حصن وقومه فأخافوهم فعادوا إلى الرشد ودخلوا إلى الإسلام .

أما قريش التى بقيت على الكفر فلا زالت تحتفظ بنظامها وقيادتها ، لقد صَغُر حجمها وتضاءلت قوتها ومَلَكَها الخوف فمنعها من إدراك كُنْه الإسلام وفضائله وما يمكن أن يعود عليها من خير إذا دخلت فيه ، فوقفت مكانها جامدة الذهن من هذه الناحية واستمسكت قيادتها بصلف العنيد ، الذى لم يبق له إلا الكبرياء وقد أحس زعماء قريش أن رسول الله لا يريد أن يحطم كبرياءهم فهو يعاملهم برفق وأناة ، واطمأنوا إلى أنه لن يأذن لأصحابه فى اجتياحهم ، فأقبلوا على المفاوضة وهم عارفون بالمدى الذى يمكن أن يصلوا إليه ، وندبوا للمفاوضة ثلاثة من رجالهم هم سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص .

ويستلفت النظر أن ثلاثتهم من عامر بن لؤى دون كعب بن لؤى ، فسهيل بن عمرو هو ابن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى ، وأما حويطب فهو ابن عبد العزى بن أبى قيس الذى ينتهى نسبه إلى مالك بن حسل ابن عامر بن لـؤى ، وأما مكرز فهو من بنى منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤى ، فكأن الرياسة انتقلت كما قلنا من بنى كعب بن لؤى - وفيهم عمود النسب النبوى ، ويمثلهم فى جهة كفار قريش أبو سفيان صخر بن حرب - إلى بنى عامر بن لؤى ، ولم يستلفت ذلك نظر مؤرخينا القدامى .

ولكننا نلاحظ أن هذا القبيل من قريش بدأ يظهر أمره فى قريش منذ أيام صحيفة مقاطعة بنى هاشم ، فهشام بن عمرو بن ربيعة كان أول من نهض لنقض صحيفة المقاطعة وواجه أبا جهل وأنداده من المتشددين وتمكّن من نقض الصحيفة بمعاونة نفر من القرشيين . والآن نرى بنى عامر بن لؤى يتصدرون للزعامة ، فأين إذن أبو سفيان بن حرب بن أمية الأكبر من بنى عبد شمس بن عبد مناف ؟ نعتقد أن أبا سفيان وقومه من بنى عبد مناف الذين كانوا يمثلون بنى كعب بن لؤى كانوا منذ حين أمْيل إلى التفاهم مع محمد ﷺ وأمة الإسلام . لقد كانت الرياسة لهم حتى الخندق ، وبعد الخندق ، وعندما تبينوا ألاَّ قِبَل لقريش ومكة بأمة الإسلام فى المدينة مالوا إلى الموادعة ، ولم يرض عن ذلك بنو عامر بن لؤى وتصدوا للرياسة فتركهم أبو سفيان وقومه يفعلون ما يستطيعون .

وسيظل هذا القبيل فى قيادة قريش حتى ينتهى الأمر إلى نقض صلح الحديبية مع رسول الله ويقرر الرسول فتح مكة ، وهنا تعود القيادة إلى بنى كعب بن لؤى ، فيكون المتصدر للتفاهم مع رسول الله ﷺ أبو سفيان بن حرب ، ويحسن التصرف فيما أراد ، وسنرى أنه سيتفق مع الرسول ﷺ بصورة غير مباشرة على أن تسلِّم قريشٌ مكةَ دون قتال ، ويكون ذلك فعلاً ، ويكون فى ذلك إنقاذاً لقريش ، بل بداية لعصر جديد من تاريخها فى ظل الإسلام ؛ لأن قريش مكة عرفت كيف تنضم إلى قريش المدينة ، فاتحد القريشان من جديد تحت راية الإسلام ، وفى ظل محمد صلوات الله عليه ، وستحافظ قريش على هذه الوحدة فى ظل أبى بكر وعمر ، ويجتهد بنو عبد شمس فى بناء أنفسهم فى ظل دولة الإسلام دون أن ينسوا حسدهم ومنافستهم لبنى هاشم .

وما تكاد الخلافة تصير إلى عثمان بن عفان - وهو من عبد شمس - حتى يبذل العبشميون كل ما يستطيعون لوضع أيديهم على أكبر نصيب من عَصَبَات القوة فى دولة الإسلام ، فإذا استوثقوا من ذلك بقيادة معاوية بن أبى سفيان نهضوا لمنازلة بنى هاشم بعد مقتل عثمان ، ولا يزالون يعملون حتى لا يستطيع على بن أبى طالب رابع الخلفاء الراشدين السيطرة على قريش كلها وعلى دولة الإسلام جميعها ، معتمدين فى ذلك على روابط العصبية التى ربطتهم إلى مخزوم وسهم وجُمَح ومرة بن عبد مناة ، لأن

بنى هاشم وعلى رأسهم على بن أبى طالب نسوا موضوع العصبية اتباعاً لما يقضى به الإسلام ، فأحياه بنو عبد شمس وعادوا بدولة الإسلام إلى عصبية الجاهلية وحكموا الأمة بحد السيف ، ولكن الإسلام غلاب ، فلا زالت دعوة الهاشمية تستجمع القلوب حتى نهضت بعبء الدولة الهاشمية التى تحولت - بمؤامرة معروفة - إلى دولة عباسية غاصبة غاشمة . وتتحول الهاشمية الموتورة إلى شيعية بشتى مذاهبها ، فيكون بنو عبد شمس مسئولين عن ذلك الانكسار البعيد المدى ، الوخيم العواقب بالنسبة للقوة السياسية للمسلمين ، أما قوتهم العقيدية المتمثلة فى الأمة فظلت كتلتها باقية صلبة حتى يحدث الكسر الخطير الذى يُحدثه الصفويون فى جبهة الإسلام فى النصف الأول من القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى .

المفَاوَضَة وَالصُّلح :

لم يكن رجال عامر بن لؤى موفَّقين فى قيادتهم لقريش ، وكان انتدابهم أنفسهم للتفاوض مع رسول الله ﷺ مسيئاً إليهم ، ولولا كرم الرسول وسعة قلبه واتساع ذهنه لما نجحت المفاوضة ، ولكننا نعرف ما كان من أمر سُهيل بن عمرو وسوء حديثه للرسول وإصراره على عدم ذكر أنه رسول الله فى نص القضية أو نص الصلح ، ونحن نعرف أن رسول الله ﷺ كان طويل الأناة هادىء الطبع لا يرفع صوته فى حديث ، فانظر كيف يصف الواقدى شكل هذه المفاوضة : « فأتى سهيل إلى النبى ﷺ حين طلع قال : أراد القوم الصلح ! فتكلم رسول الله ﷺ فأطال الكلام : وتراجعوا ، وترافعت الأصوات وانخفضت » .

« فحدثنى يعقوب بن محمد عن عبد الرحمن بن عبد الله ، عن الحارث بن عبد الله ابن كعب قال : سمعت أم عمارة تقول : « إنى لأنظر إلى رسول الله ﷺ جالساً يومئذ متربعاً ، وإنَّ عَبَّاد بنَ بشر وسلمة بن أسلم بن حريش مُقنعان بالحديد قائمان على رأس النبى ﷺ ، إذا رفع سهيل بن عمرو صوته قالا : اخفض من صوتك عند رسول الله ، وسهيل بارِكٌ على ركبتيه رافعٌ صوته كأنِّى أنظر إلى عَلَم فى شفته [1] وإلى أنيابه ، وأنَّ المسلمين حول رسول الله ﷺ جلوس » .

---

(١) العلم : الشق فى الشفة العليا ، وذلك ما يُعرف بعم الأرنب

وعندما تم الاتفاق والمسلمون يسمعون ، لم يُطِق عمر صبراً على ما يرى من حلم الرسول وطول أناته مع هذا الرجل ، فقفز من مكانه واتجه إلى رسول الله ، وقال : يا رسول الله ! ألسنا بالمسلمين ؟ قال رسول الله ﷺ : بلى ! قال : فعلام نُعطى الدنية فى ديننا ؟ ففهم رسول الله ما يقصد إليه عمر فقال : « أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ولن يُضَيِّعنى » والحق أن جلافة عمرو بن سهيل تجاوزت المدى ، وهو يطلب ويشتط معتمداً على كرم الرسول ورِفْقِه وطول أناته . وذهب عمر إلى أبى بكر وأراد أن يستثيره فكان رد أبى بكر : « إلزم غرزه (يريد طريقه) فإنى أشهد أنه رسول الله ، وأن الحق ما أُمِر به ، ولن يخالف أمر الله ولن يضيعه » وبمثل هذه العبارات والمواقف استحق أبو بكر لقب الصِّدِّيق ، وبمثل تلك المواقف أيضاً استحق عمر لقبه : الفاروق ، فقد كان كالسيف يفرق الحق من الباطل .

وها هنا موقف يُرينا الفارق بين القُرَيشيِّـن . فمحمد وصحبه ومنهم الكثيرون من قريش الإسلام ، قريش الهدى والإيمان آية فى الفضل والكرم والبعد عن البغضاء والأحقاد ، ورسول الله فى هذا المشهد لا يزال يكرر : « أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ولن يضيعنى » ولو أنصف أولو الأمر فى تاريخ الإسلام لجعل كلٌّ منهم منهج حياته قوله : « أنا عبد الله ، ولن أخالف أمره ولن يضيعنى » .

وقد رأينا عمر وأبا بكر . فاستمع إلى ثالث الثلاثة الذين جمعهم الإيمان والخير والحب لرسول الله وهو أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح من بنى الحارث من فهر وغريب أمر بنى الحارث بن فهر بن مالك هؤلاء ! فقد اطْلَع هذا البيت من قريش من أعلام الإيمان والإسلام رجالاً لا يُقَارنون إلا ببنى هاشم ، فمنهم بعد أبى عبيدة - وهو أعظمهم - عمـرو بن الحارث بن زهير وهو بدرى ، وسهل بن ربيعـة بن عامـر وهو ممن مشى فى نقض الصحيفة ، ثم أسلم وكان بدريًا ، وعياض بن غَنْم الفاتح المشهور الذى فتح الجزيرة العراقية وأرمينية ، وهو أول من جاز الدرب إلى الروم ، ومنهم هند بنت جابر زوج أبى عبيدة ، ومنهم نافع بن عبد القيس من رجال فتح مصر، وهو فاتح النوبة ، وابنه عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهرى أعظم فاتحى المغرب ، ومن ولد هذا الأخير حبيب بن أبى عبيدة وابنه عبد الرحمن أول من حاول الاستقلال بأفريقية وإقامة دولة محلية إسلامية فيها .

ويردد عمر على أبى عبيدة ما قاله لأبى بكر ، فيقول له أبو عبيدة : « ألا تسمع يا ابن الخطاب رسول الله يقول ما يقول ؟ تعوَّذ بالله من الشيطان واتَّهم رأيك ! » قال عمر : « فجعلت أتعوذ بالله من الشيطان الرجيم حياءً ، فما أصابنى شىء قط مثل ذلك اليوم، وما زلت أصوم وأتصدق من الذى صنعتُ مخافة كلامى الذى تكلمت يومئذ » .

هذا فى جانب قريش الإيمان والإسلام ، فماذا فى جانب قريش الكفر والطغيان ؟

هذا سهيل بن عمرو يتجنى ويتصلف معتمداً على كرم رسول الله ، فقبل أن يكتب الكتاب اعتقد أن الأمر قد تم ومضى يشتط ويتطاول ويرفض أن يكتب أن محمداً رسول الله ، وعندما يُقبل ابنه أبو جندل ، وكان من المسلمين عند قريش ثم هرب من مكة ويُقبل إلى رسول الله مستجيراً أثناء مفاوضة الحديبية وكان متوشحاً سيفه « فرفع سهيل رأسه فإذا بابنه أبى جندل فقام إليه سهيل فضرب وجهه بغصن شوك ، وأخذ بَلِيَّته . وصاح أبو جندل بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أُرَدُّ إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟ فزاد ذلك المسلمين شراً إلى ما بهم (وكانوا جميعاً قلقين بسبب كرم الرسول وطول أناته يتمنون لو أذن لهم فاجتاحوا مكة وقريشاً جميعاً) وجعلوا يبكون لكلام أبى جندل .

قال حويطب بن عبد العزى لمكرز بن حفص (وكلاهما من المشركين وهما زميلا سهيل بن عمرو ولكنهما أقلُّ جلافة منه) : ما رأيت قوماً قط أشد حباً لمن دخل معهم من أصحاب محمد لمحمد ، وبعضهم لبعض ، أما إنى أقول لك : لا نأخذ من محمد نَصفاً أبداً بعد هذا اليوم حتى يدخلها عنوة . فقال مكرز : أنا أرى ذلك» . فكأن هذين الكافرين أحسَّا بقوة الإسلام والمسلمين بفضل إيمانهم وكرم نبيهم وطول أناته وبُعْد نظره ، فهما يريان أن هذا المشهد كله لا بد أن ينتهى بنصر محمد والمسلمين معه ، أما سهيل بن عمرو فلم يفتح عينيه بعد ، فهو يريد أن يأخذ ابنه ليرده إلى الكفر، ويصيح مخاطباً رسول الله ﷺ : هذا أول ما قاضيتُك عليه ، ردُّوه ! فقال رسول الله : إنَّا لم نقض الكتاب بعد ! فقال سهيل : والله لا أكاتبك على شىء حتى ترده إلىَّ ! فردَّه رسول الله ﷺ ، فكلَّم رسول الله ﷺ سهيلاً أن يتركه ويأبى سهيل ، فقال مكرز بن

حفص وحويطب : يا محمد ، نحن نُجيره لك ، فأدخلاه فسطاطاً فأجاراه ، وكَفَّ أبوه عنه ، ثم رفع رسول الله ﷺ صوته فقال : يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك فرجاً ومخرجاً . إنَّا عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً وإنَّا لا نغدر » .

وهنا لم يُطق عمر صبراً ، للمرة الثانية ، فعاد يكرر على رسول الله مقالته الأولى وقد غُمَّ عليه ، وهو هنا يُعَبِّر عن شعور الكثيرين من المسلمين الذين لم يدركوا مرمى رسول الله ﷺ من وراء الصبر وضبط النفس مع هذا الكافر والمكابر اللجوج ، فهو يتحدث إلى أبى بكر : فيقول أبو بكر : إنه رسول الله ولن يعصيه ، ولن يضيعه ، فدع عنك ما ترى يا عمر ، قال عمر : فوثبت إلى أبى جندل أمشى إلى جنبه ، وسهيل بن عمرو يدفعه ، وعمر يقول : اصبر يا أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب ، وإنما هو رجل وأنت رجل ومعك السيف ! فرأيت أن يأخذ السيف ويضرب أباه ، فضنَّ الرجل بأبيه فقال : يا أبا جندل ، إن الرجل يقتل أباه فى الله ، والله لو أدركنا آباءنا لقتلناهم فى الله ! فرجل برجل ! قال : وأقبل أبو جندل على عمر فقال: ما لك لا تقتله أنت ؟ قال عمر : نهانى رسول الله ﷺ عن قتله وقتل غيره ، قال أبو جندل : ما أنت بأحقّ بطاعة رسول الله منِّى !

وقال عمر ورجال معه من أصحاب النبى ﷺ : يا رسول الله ، ألم تكُنْ حدَّثتنا أنك تدخل المسجد الحرام وتأخذ مفتاح الكعبة ، وتُعَرِّف مع المعرفين (أى : تقف بعرفات)؟ وهَدْيُنا لم يصل إلى البيت ولا نحن ! قال رسول الله ﷺ : « قلت لكم فى سفركم هذا ؟ قال عمر : لا ! قال رسول الله ﷺ : أما إنكم ستدخلونه وآخذ مفتاح الكعبة وأحلق رأسى ورؤوسكم ببطن مكة ، وأُعَرِّف مع المعرِّفين » .

قال الواقدى : «ثم أقبل رسول الله على عمر ، فقال : أنسيتم يوم أُحُد إذ تُصْعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم فى أخراكم؟ أنسيتم يوم الأحزاب ﴿ إذ جاءُوكُم مِّن فوقِكُم ومن أسفل منكُم وإذ زاغت الأبصارُ وبلغت القُلوبُ الحناجر ﴿١٠﴾ ﴾ - [الأحزاب] أنسيتم يوم كذا ؟ وجعل رسول الله ﷺ يُذكِّرهم أموراً : أنسيتم يوم كذا ؟ فقال المسلمون : صدق الله ورسوله يا نبى الله ، ما فكرنا فيما فكرت فيه. لأنت أعلم بالله

وبأمره منا ! فلما دخل رسول الله ﷺ (مكة) عام القضية[1]، وحلق رأسه قال : هذا الذى وعدتكم ، فلما كان يوم الفتح أخذ المفتاح فقال: ادعوا إلىَّ عمر بن الخطاب ! فقال : هذا الذى قلت لكم ! فلما كان فى حجة الوداع بِعَرَفة فقال : أى عُمَر ! هذا الذى قلت لكم ! قال : أى رسول الله ! ما كان فتح فى الإسلام أعظم من صلح الحديبية ! وكان أبو بكر الصِّدِّيق رضى الله عنه يقول: ما كان فتح فى الإسلام أعظم من فتح الحديبية ، ولكن الناس يومئذ قَصُر رأيهم عما كان بين محمد ورَبّه . والعِباد يَعْجَلون ، والله تبارك وتعالى لا يعجل كعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد الله . لقد نظرت إلى سُهيل بن عمرو فى حجه (فى حجة الوداع) قائماً عند المنحر يُقرِّب إلى رسول الله ﷺ بُدُنَه ورسول الله ﷺ ينحرها بيده ، ودعا الحلاق فحلق رأسه ، وأنظرُ إلى سهيل يلقط من شعره ، وأراه يضعه على عينيه ، وأذكر إباءه يوم الحديبية بأن يكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، ويأبى أن يكتب أن محمداً رسول الله ، فحمدت الله الذى هداه للإسلام ، وصلوات الله وبركاته على نبى الرحمة هدانا به وأنقذنا من الهلَكة»[2].

ولقد تابعت فى هذا الحديث نص الواقدى ، فإنه أبلغ من كل مقال فى تصوير حال قريش المؤمنة تجاه قريش الكافرة ، وأستطرد فى حديث الحديبية حتى أفرغ منه ، فأقول : إن سهيل بن عمرو هذا عند كتابة نص الاتفاق ، وبعد أن استدعى الرسول على بن أبى طالب ليكتب توقف سهيل فى أن يكتب «بسم الله الرحمن الرحيم » وأصر على أن يكتب باسمك اللهم ، والمسلمون يضيق صدرهم بما يرون ويسمعون ، ويتغاضى له الرسول عن ذلك ويأمر علياً بأن يكتب باسمك اللهم ! ثم يتوقف سهيل بن عمرو فى أن يكتب: محمداً رسول الله ، ويقول فى جرأة الجاهل : لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك واتبعتك ، أفترغب عن اسمك واسم أبيك : محمد بن عبد الله ؟ فضج المسلمون منها ضجة هى أشد من الأولى ، حتى ارتفعت الأصوات وقام رجال من أصحاب رسول الله يقولون : لا نكتب إلا محمد رسول الله!

ثم اقرأ بقية الخبر عند الواقدى ، لتعرف إلى أىِّ مدى كان رسول الله ﷺ يفهم

(١) عندما اعتمر بعد ذلك بسنة بناء على صلح الحديبية.
(٢) الواقدى ، مغازى ، ٢/ ٦٠٩ - ٦١٠ .

أصحابه ويحترم مشاعرهم ويجتهد فى إقناعهم باللين والصبر ، بأن ما سيبلغونه بالأناة والملاينة يزيد أضعافاً على ما يمكن أن يبلغوه بالعنف ، وما داموا قد ارتضوه هادياً ورئيساً وبايعوه على الحرب والسلم وفوَّضوه فى الأمر كله بعد المشاورة فى بيعة الرضوان ، فليتركوه يُسيِّر الأمور كما يرى .

قال الواقدى : فحدثنى ابن أبى سبرة ، عن إسحاق بن عبد الله عن أبى فروة عن واقد بن عمرو ، قال : حدثنى من نظر إلى أُسَيْد بن حُضير وسعد بن عُبادة قد أخذا بيد الكاتب فأمسكاها وقالا : لا تكتب إلا محمد رسول الله وإلا فالسيف بيننا ! علام نُعطى هذه الدنية فى ديننا ؟ فجعل رسول الله ﷺ يُخفِّفهم ويومىء بيده إليهم : اسكتوا! وجعل حويطب يتعجب مما يصنعون . ويقبل على مكرز بن أبى حفص ويقول : ما رأيت قوماً أحوط لدينهم من أولئك القوم ! فقال رسول الله ﷺ : اكتب باسمك اللهم . فنزلت هذه الآية فى سهيل حين أَبَى أن يُقِرَّ بالرحمن : ﴿ **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ** (١١٠) ﴾ [الإسراء] ، فقال رسول الله ﷺ : أنا محمد بن عبد الله ، فاكتب فكتب : باسمك اللهم ، هذا ما اصطلح عليه محمد ابن عبد الله وسهيل بن عمرو . اصطلحا على وَضْع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه لا إسلال ولا إغلال [١] ، وإن بيننا عبية مكفوفة [٢] ، وأن من أحب أن يدخل فى عهد محمد فعل ، وأنه من أحب أن يدخل فى عهد قريش وعقدها فعل . وأنه من أتى إلى محمد منهم بغير إذن وليِّه رده إليه ، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم ترده ، وأن محمداً يرجع عنا عامه هذا بأصحابه ويدخل علينا قابل فى أصحابه فيقيم ثلاثاً لا يدخل علينا بسلاح إلا سلاح المسافر السيوف فى القُرُب » شهد أبو بكر بن أبى قحافة ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح ، ومحمد ابن مسلمة ، وحويطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص بن الأخيف .

ونقف هنا لحظة لنتأمل فيما أشرنا إليه من إطلاق الرسول ﷺ الحرية لأصحابه ليقول كل منهم رأيه كما يريد : فهذا عمر يعترض ورسول الله يجتهد فى أن يهدىء من

---

(١) الإسلال : السرقة الخفية ، والمعنى المراد لا تدبير فى الخفاء ، والإغلال : الخيانة .
(٢) أى : يكف بعضنا عن بعض .

روعه ويطمئنه إلى أنه لا يرضى بِدنيَّة فى دينه ، وإنما هو يُحكِّم العقل وينظر إلى بعيد ، وهو يثق فى الله سبحانه وتوجيهه إياه ، وهو سبحانه لن يضيعه . وهذان أُسيد بن الحضير وسعد بن عبادة يريدان أن يمنعا الكاتب (وهو على بن أبى طالب) من أن يكتب إلا ما يقولون ، ورسول الله يطيل معهم الأناة لأنه يعرف أنه يحقق بما يرى ويفعل للإسلام فوق ما يؤملان ، وهو لا يغضب ولا يعبس ولا يأمر ولا ينهى ، إنما هو يدع من يريد أن يقول رأيه أن يقوله ثم بعد ذلك يكون رأى الأغلبية ، والأغلبية قد فوَّضت رسول الله فهى راضية بما يرى : لا استبداد فى جماعة الإسلام ولا رأى مفروض ، وإنما هو الاقتناع والثقة بين الرسول والمسلمين .

وقد رأينا أن رسول الله بعد أن اعتمر ثم حج بعد ذلك ، حرص على أن يستدعى الذين كانوا يعارضون ليريهم أنهم لم يكونوا على صواب فيما رأوا ، وأنه حقق كل ما وعد وكل ما يريدون فى وقته وأوانه على أحسن وجه ، فأين هذا مما ستراه أمة الإسلام من عسف الأموية وطغيان العباسية ؟ أين هذا من معاوية بن أبى سفيان الذى قتل رجالاً لأنهم اعترضوا على سَبِّ على بن أبى طالب رضى الله عنه على المنابر ؟ وأين هذا من أبى عبد الله السفاح وأخيه وأعمامه الذين افتتحوا عصرهم العباسى بمذابح شائنة لخصومهم السياسيين جميعاً ، المسىء منهم وغير المسىء ، بل قتلوا فى الطريق رجالاً من أوليائهم وبناة دولتهم منهم أبو سلمة الخلال الذى عُرِف بوزير آل محمد ، لمجرد أنه ظن أن الدعوة هاشمية حقاً ، فكتب من تلقاء نفسه إلى الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر وآخرين من آل على يعرض عليهم الخلافة غير عالم بما ائتمر عليه إبراهيم الإمام مع أبى مسلم الخراسانى .

وما أكثر ما نبتعد عن خط الرسول ﷺ ثم نشكو ! إن معظم مصائبنا آتية من أننا ندرس السنة درساً بالغاً ونؤلف فيها المجلدات ، فإذا جئنا إلى التطبيق انحرفنا عنها ، ثم نطلب التوفيق من الله بعد ذلك ! وهيهات !

ونلاحظ هنا أنه لم يوقع على هذه الوثيقة من الأنصار إلا واحد وذلك مفهوم ، فإن الأنصار كانوا يرون أنها فرصة ضاعت عليهم ، فرصة اجتياح مكة والقضاء على الأعداء بضربة واحدة ، ولكن رَأْى الرسول وبصيرته وبُعْد نظره غلبت ، فَقَبِل الأنصار وإن غالبيتهم لغاضبون .

وبعد أن فرغوا من الكتاب احتفظ رسول الله بالأصل وأخذ سهيل نسخة . وما كاد العقد يتم حتى وثب مَن هناك من خزاعة وقالوا : نحن ندخل فى عهد محمد وعقده ، ونحن على من وراءنا من قومنا ، ووثب بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة فقالوا: نحن ندخل مع قريش فى عهدها وعقدها ، ونحن على من وراءنا من قومنا !

وكان هذا متوقعاً ، فنحن نعرف ارتباط خزاعة بالفرع الهاشمى من قريش ، وهو الذى انتقلت رياسته إلى المدينة متمثلة فى محمد رسول الله ﷺ ثم المهاجرين ، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك ، وأشرنا كذلك إلى ميل بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة إلى بنى عبد شمس بن عبد مناف منذ أيام حرب الفِجَار الثالثة .

ولكن حويطب بن عبد العزى استوقف نظره الأمر ، فقال لسهيل بن عمرو : بادَأَنا أخوالُك بالعداوة ، وقد كانوا يسترون منا ، قد دخلوا فى عهد محمد وعقده . وكان حويطب هنا يُعيِّر سهيلاً بأن أمه من خزاعة وهى حُبَّى بنت قيس بن ضبيش من بنى عمرو بن خزاعة ، وكذلك كان ثلاثة من أبناء عامر بن لؤى ، وهم معيص وعويص ونعيم من أم خزاعية ، أما أن خزاعة كانت تستتر من قريش أى تخفى ميلها لمحمد والإسلام فليس ذلك بصحيح ، فالخزاعيون جميعاً كانوا مع محمد ظاهراً وباطناً ومعظمهم كان قد أسلم .

فردَّ عليه سهيل قائلاً : « ما هم إلا كغيرهم ، هؤلاء أقاربنا ولَحْمَتُنا قد دخلوا مع محمد . قوم اختاروا لأنفسهم أمراً فما نصنع بهم ؟ قال حويطب : نصنع بهم أن ننصر عليهم حلفاءنا بنى بكر (بن عبد مناة بن كنانة) قال سهيل : إياك أن تسمع منك هذا بنو بكر ، فإنهم أهل شؤم ، فيثبوا بخزاعة ، فيغضب محمد لحلفائه ، فينقض العهد بيننا وبينه . قال حويطب : جظوت [1] والله أخوالك بكل وجه » . فقال سهيل : « ترى[2] أخوالى أعز علىّ من بنى بكر ؟ ولكن ، والله لا تفعل قريش شيئاً إلا فَعَلْتُه ، فإذا أعانت بنى بكر على خزاعة فإنما أنا رجل من قريش ، وبنو بكر أقرب إلىَّ فى قِدَم النسب وإن كانت لهؤلاء لَخُؤولة ، وبنو بكر مَنْ قد عرفت ، لنا منهم مَوَاطن كلها ليست بحسنة ، منها يوم عكاظ » .

(١) يريد : أيدتهم ودافعت عنهم .
(٢) يريد : أتحسب أن أخوالى ... الخ .

وهذا الحديث بين الرجلين يدل على عمق الروابط القبلية عند أولئك القرشيين وتعلُّقهم بالأنساب ، فسهيل يدفع أول الأمر عن أخواله من خزاعة، ثم يقول إنه مع ذلك رجل من قريش يميل حيث تميل قريش ، وأن قريشاً لو نصرت بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة فإنه مع قريش على أى حال ، رغم أن كنانة كانت لهم مواقف سيئة من قريش كما فعلت فى يوم عكاظ ، وهو يوم من أيام الفِجَار ، ويُعرف بيوم عكاظ ، وفيه تخلت بنو عبد مناة من كنانة عن أبناء عمومتها قريش وأيدت هوازن ، فقتل فى ذلك اليوم وفى يوم العبلاء الذى تلاه كثيرون من قريش ولم تَنْجُ قريش إلا بفضل العنابس من بنى أمية الأكبر ، وأحلافهم من بنى مخزوم وتيم بن مرة ، وتلك هى الأصول البعيدة لانقسام قريش إلى فرعين من بنى كعب بن لؤى ، هما بنو هاشم بن عبد مناف، وبنو شمس بن عبد مناف ، وانضم إلى كل من الجانبين فريق من القرشيين .

وأعجب من هذا أن عِرْق العصبية هذا ظل ينبض فى هذا الفريق من بنى قصى بن كلاب حتى أقاموا عليه دولة بنى أمية ، أما بنو هاشم فقد غلب عليهم الإسلام وأغناهم نسب رسول الله عن كل نسب ، فكان هذا حسبَهم عند الله ، أما عند الناس فقد نبض عرق الهاشمية فى جمهور المسلمين غَضَباً لبنى هاشم وما أصابهم من أعدائهم ، ولم تعد الهاشمية عصبية قبلية بل محبة فى محمد ﷺ وأَنَفَةً من أن يصيبهم هذا المكروه كله على أيدى فريق من قريش غلبت الدنيا عندهم على الدين ، فاختاروا الدنيا وما كان أقصرها من دنيا ! فإنْ هى إلا نيف وسبعون سنة هجرية حتى ذهبت بهم الدنيا التى تكالبوا عليها وصاروا حصيد السيوف ، وقامت دولة الهاشمية التى انقلبت إلى عباسية طمعاً فى الدنيا ، فانتصر بنو العباس وما سعدوا ، ودخلوا دولتهم يخوضون فى بحر الدماء ، ونادى مناديهم : لا عصبية بعد اليوم ولا نسب إلا فى الإسلام ، يريدون أن ينسى الناس بنى هاشم ، فصار العرب جميعاً من ذلك الحين يُنسبون إلى آبائهم ولا يقال البكرى أو الكعبى أو الثقفى ، إلا عند الباحثين عن الأنساب من أهل العلم والمتمسكين بالأنساب من أهل البداوة والظعن ، ولم يبق على التاريخ من نسب يذكره الناس جميعاً ويتبركون به غير نسب بنى هاشم وعترة محمد صلوات الله عليه . وسبحان من خلق نبيه الأكرم عندما بدأ الخلق ، وتبقى رايته ملاذاً للناس عندما يُطوى الخلق كله ويُدعى للحساب .

هكذا انتهى هذا التواجه بين القُرَيْشَيْن بنصر مؤزر لقريش الإسلام على قريش الكفر ، فإن الطريق عندما فُتِحت بين مكة والمدينة وتلاقى الناس ، دخل فى الإسلام جمهور من أهل مكة ممن كانوا يطوون أنفسهم على إيمانهم خوفاً من عصبية سادات الشرك فى بلدهم ، ويُجمع الرواة على أن من أسلم فيما بين الحديبية وفتح مكة - على قِصَر المدة بينهما - زادوا أضعافاً على من أسلم قبلها . قال ابن إسحاق فى تفسير قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الفتح] : صلح الحديبية . قال الزهرى : فما فُتِح فى الإسلام فَتْح قبله كان أعظم منه . إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وأَمِن الناس كلهم بعضهم بعضاً والتقوا ، فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة فلم يكلِّم أحد فى الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه . ولقد دخل فى تينك السنتين مثل من كان دخل فى الإسلام قبل ذلك وأكثر. قال ابن هشام : والدليل على ما قاله الزُّهرى ، أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية فى ألف وأربعمائة رجل فى قول جابر ، ثم دخل عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين فى عشرة آلاف »[1] .

ومن جميل مذاهب أهل السيرة أنهم يتبعون حديث غزوة الحديبية بتفسير آيات من سورة الفتح ، وهذه السورة الكريمة وما تضمنته من المعانى هى أبلغ تعبير عن نصر الإسلام ورسوله فى غزوة الحديبية هذه . وقد رأينا أن ما أبداه رسول الله أثناءها من الصبر والحلم مع الكفار والمؤمنين على السواء ، يؤكد لنا بُعْد نظره وصادق تقديره ، فقد كان يعرف أن جعجعة سهيل بن عمرو وتمسكه بالكلمة والحرف وإصراره على الصغائر ، إنما كان ستراً لما كان يشعر به هو وقومه من ضعف وخوف ، حتى ما تمسك به صفوان من ضرورة رد من أتى محمداً ﷺ من المسلمين هارباً من الكفار رده عليهم ، حتى هذا الشرط الذى أغضب الكثيرين من المسلمين تبين بعد قليل أن رسول الله كان بالغ الفطنة عندما سلَّم لصفوان الذى يبدو وكأنه تسليم لقريش بشىء هو ضرر للمسلمين .

فقد روينا خبر أبى جندل بن صفوان بن أمية وكيف تمسك أبوه بردِّه - وكان

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٤/ ١٧٠ .

مسلماً - فرده الرسول ووعده بأن يجعل الله له مخرجاً وفرجاً قريباً ، فيريد ربك أن يكون هذا الفرج أقرب مما تصور الناس ، ذلك أن رجلاً يُكْنى أبا بصير واسمه عُتبة ابن أُسيد بن جارية كان حليفاً لبنى زُهرة القرشيين ، وكان قد أسلم ، فهرب إلى المدينة لاجئاً إلى رسول الله وأمة الإسلام ، وأرسلت بنو زُهرة فى طلبه وفاءً بالشرط ، فطلب رسول الله إلى أبى بصير أن يعود ، فرضخ الرجل ، واقتاده رجال قريش عائدين إلى مكة ، فلما كان فى بعض الطريق تمكن أبو بصير من قتل أحد آسريه ، وأخذ سلاحه وسلبه وذهب إلى المدينة ليجد الباقين من آسريه يشكون أمره إلى الرسول ، وأقبل أبو بصير فى أثناء ذلك فقال لرسول الله : وَفَت ذِمتُك وأدَّى الله عنك ، وقد أسلمتنى بيد العدو ، وقد امتنعت بدينى من أن أُفْتن أو يُعْبَث بى أن أكذِّب بالحق ، فقال رسول الله ﷺ : ويلُ أمِّه ، محش حرب لو كان معه رجال !

ثم خرج أبو بصير إلى العيص على ساحل البحر ، وثبت فى موضع قرب طريق التجارة ، وتأشب إليه جمع من المسلمين ممن هربوا من مكة عندما بلغهم أن رسول الله قال : ويل أمه ، مِحَش حرب لو كان معه رجال وخرج الرجل إلى ساحل البحر وتلاحق به من أحب من المسلمين فأصبحوا قرابة سبعين رجلاً ضيقوا على قريش ، لا يتركون عيراً لها تمر إلا سطوا عليها ، ولا يقع فى يدهم قرشى كافر إلا قتلوه ، حتى ضجت قريش وضاقت بأولئك الرجال ، فأتوا إلى رسول الله يرجونه أن يضم أبا بصير ومن معه إليه وهم متنازلون عن المطالبة به.

وقد ثارت بهذه المناسبة مناقشات بين القرشيين ، لأن الرجل الذى قتله أبو بصير وأخذ سلاحه وعاد إلى المدينة كان من عامر بن لؤى ، فرأى صفوان بن أمية أن ديته على رسول الله وقال : «والله ما صالحنا محمداً على هذا . قالت قريش : قد برىء محمد منه ، قد أمكن منكم صاحبكم فقتله بالطريق ، فما على محمد فى هذا ؟ فقال سهيل : قد والله عرفتُ أن محمداً قد أوفى ، وما أوتينا إلا من قِبَل الرسولين . قال : فأسند (سهيل بن عمرو) ظهره إلى الكعبة وقال : والله لا أؤخر ظهرى حتى يُودَى هذا الرجل. قال أبو سفيان : إن هذا لهو السفه ، والله لا يُودى ! ثلاثاً (أى : قالها ثلاثاً) وأنى (أقول) قريش تديَه ، وإنما بعثته (أى : بعثت الرسول الذى قتل) بنو زهرة (لأن

أبا بصير كان حليفها) . فقال سهيل : قد والله صدقت ! ما ديته إلا على بنى زهرة ، وهم بعثوه ولا يخرج ديتَه غيرُهم قَصْـرَةً (أى : أن ذلك الواجب مقصور عليهم) لأن القاتل (أبا بصير) منهم ، فهم أولى مَنْ عَقَلَه . فقال الأخنس (بن شَريق - من بنى زهرة) : والله لا نديه ، ما قَتَلْناه ولا أمرنا بقتله . قتله رجل مخالف لديننا متبع لمحمد ، فأرسلوا لمحمد يَدِيَه . قال أبو سفيان : لا ! ما على محمد دية ولا غُرم ، قد بَرِىءَ محمد، ما كان على محمد أكثر مما صنع ، لقد أمكن الرسولين منه . فقال الأخنس: إن وَدَته قريش كلها كانت زُهرة بَطْناً من قريش تَدِيه معهم ، وإن لم تَدِه قريش فلا نديه أبداً . فلم تُـخْرَج له دية حتى قدم رسول الله ﷺ عام الفتح ...»[1] .

وهكذا نرى أن قريشاً لا زالت رغم ما نزل بها من الهزائم وما ساء من حالها متماسكة فيما يتعلق بإقامة التقاليد القبلية والعرف القبلى فى مجتمعها ، فهذه المناقشة كلها تدور حول من يتحمل دية رجلٍ منهم قتل ، ولا سبيل لهم إلى القاتل . بل إن بنى زهرة عرضت أن تشارك قريشاً فى أداء الدية مجتمعة ، فأبى ذلك القرشيون ، فلما فُتِحت مكة ودخل رسول الله البلد مظفراً ، كان هو الذى ودى الرجل إحساناً منه وفضلاً .

ونلاحظ أثناء المناقشة أنَّ رَأْى أبى سفيانِ هو الذى غلب، وأبو سفيان وبيته من بنى عبد شمس جميعاً تركوا بنى عامر بن لؤى يتصرفون حتى يُنْقَض العهد بسوء رأيهم ، وهنا يعود بنو أمية للقيادة لكى يَخْرجوا بقريش الكافرة مِنَ الهلاك أو هكذا رجوا ، لأن الذى أنقذ قريشاً ومكة كان رسول الله بأمر الله سبحانه ، ولا يمنع ذلك من القول بأن أبا سفيان كان له فى ذلك دور كبير كما سنرى .

وقبل أن ننتقل من هذه النقطةَ نقول إن أبا بصير ومن معه بالغوا فى أذى قريش حتى ضَجَّتْ منهم وعجزت أمامهم ، فذهب رجالها إلى محمد ﷺ وسألوه بأرحامهم أن يضم أبا بصير وأصحابه إليه ، لكى يقلعوا من مكانهم الذى استقروا فيه بالساحل. وفعل رسول الله ، وأمر بالكتابة إلى أبى بصير ، فوصله الخطاب وهو يجود بنفسه. مات فى مكانه فى العِيص على ساحل بحر القلزم مجاهداً أعداء الله ، ودفنه أصحابه

(١) الواقدى ، مغازى ٢ / ٦٢٧ .

وأقاموا عند قبره مسجداً ، وعادوا إلى المدينة ، ومنهم الوليد بن الوليد بن المغيرة ، وكان من خيرة المسلمين فلما مات استأذنت أم سلمة أم المؤمنين رسول الله فى أن تبكيه فأذن لها ، لأنها ابنة عمه فهى بنت مهشَّم بن أبى حذيفة بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وهى ابنة أخيه الوليد بن هشام ، والوليد بن الوليد بن المغيرة هذا هو أخو سيف الله خالد بن الوليد . فانظر إلى تشابك أنساب قريش هذه ، وأعجب كذلك عندما تَذْكُر أنَّ حَنْتَمَة أم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ابنة عم بعيدة لأم سلمة وخالد بن الوليد والوليد بن المغيرة الذى طلبت أم سلمة أم المؤمنين من رسول الله الإذن فى أن تبكيه .

ولا يستتم كلامنا عن الحديبية ونصر الله فيها لقريش المؤمنة على قريش الكافرة ، إلا بأن نشير إلى سورة الفتح وهى الثامنة والأربعون من سور القرآن الكريم نزلت ورسول الله عائد فى الطريق من الحديبية إلى المدينة ، وأول آياتها ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤)** ﴾[1] . وعندك بقية السورة فى كتاب الله العزيز فاقرأها ليفتح الله عليك وعلينا من معانى الإيمان ما يملأ القلوب هدى وبصيرة .

الوَضع فى الحجاز وشمال الجزيرة وَوَسطها

بعدَ الحُدَيبيّة :

ترك رسول الله ﷺ قريشاً لشأنها ، فقد أصبحت فى حسابه ثمرة تينع ثم تسقط من تلقاء نفسها عندما يحين حَيْنها ، ومضى الإسلام ينتشر بين أهلها ، وتضاءل أمر الشرك ورجاله حتى أصبحوا رمزاً بلا معنى . وقد شعروا هم بذلك ورأوا ضياع أمرهم ، فلا سبيل لهم الآن إلى تتبع المسلمين فى بلدهم أو فيما حولهم ، وضاعت من أيديهم تجارة مكة بتوالى المحن والحروب وانقطاع الطريق ، وتقطعت الأسباب التى كانت تضمن لهم سلامة متاجرهم فى نواحى الجزيرة ، وأخذت قبائل شبه الجزيرة تتطلع إلى النجم الجديد الصاعد فى سماء جزيرتهم ، نجم الإسلام ورسوله ﷺ .

---

(١) الفتح ، آيات ١ - ٤ .

ولم يبق لقريش من حلفاء إلا بنو بكر بن عبد مناة الكنانيون ، وسنرى أنهم كانوا قبيلاً ضعيفاً لا يغنى عن قريش شيئاً إذا جَدَّ الجِدُّ ، ثم هوازن وكانت قبيلاً ضخماً من البدو متعدد البطون والأفخاذ والبيوت ، يعيش فى الرمال التى تلى جبال السراة شرقاً وتمتد منهم فروع إلى غربها قرب مكة. وكانت مكة مدينتهم ومركزهم المدنى ، وعليها كان عمادهم فيما لا غنى لهم عنه من آنية وسلاح وماعون وما إلى ذلك مما لا يُصنع فى الصحراء ، ولكنهم كانوا كغيرهم من الأعراب يعيشون من يوم ليوم ، فهم إلى هذه الساعة لم يحسوا بحرج مركز حلفائهم وأنصارهم القرشيين .

وما داموا يلمون بمكة فيجدوا فيها ما هم بحاجة إليه من السيوف والآنية وآلة ركوب الخيل ، وما دامت أمة الإسلام فى المدينة لم تعرض لهم ، فقد مضوا فى حياتهم على عهدهم على الزمن الطويل ، وسيظلون على هذه الحالة حتى تُفتح مكة وتدخل أمة الإسلام فيحسون أنهم حُرِموا من مركزهم المدنى، وهنا يتحركون .

وبقيت للقرشيين كذلك ثقيف ، وثقيف كانت قبيلاً قوياً غنياً معتزاً بالطائف معتصماً بها ، يحسبون أن أحداً على وجه الأرض لا يملك لهم ضراً ما داموا متأشبين بجبالهم ، ثم إنهم كانوا قبيلاً مقفلاً على نفسه إلى حد بعيد ، فإن علاقات الصهر بينهم وبين غيرهم من العرب اقتصرت فى الغالب على قريش ومكة . وهؤلاء أيضاً لم يعرض لهم الإسلام بعد ، فإن الخط الذى رسمه رسول الله ﷺ جعل كل شىء بأوانه ، فما دامت مكة قائمة على حالها فلا سبيل إلى ثقيف والطائف . وستفاجأ ثقيف بفتح مكة وضياع ذلك الحليف القوى إلى جانبها ، ويومها ستشعر بأن يومها قد قرب وستأخذ فى التفكير فى شأن أمة المدينة وما يكون لها معها من شأن.

فإذا كان هذا هو الوضع فى الحجاز وشمال شبه الجزيرة ووسطها ، أوائل القرن السابع للهجرة (منعطف سنة ٦٢٨ ميلادية) فقد توجه الرسول صلوات الله عليه نحو خيبر ومن لاذ بها من غطفان وأسَد وقبائل صغرى ، ورأى أن يُدْخِلها أمة الإسلام حتى يحين موعد مكة ، ورمى رسول الله ببصره إلى ما وراء جزيرة العرب شمالاً حيث الفرس والروم وعرب كثيرون ، منهم عرب الضاحية وعرب الروم

وعرب الحيرة وعرب كثيرون آخرون فى بلاد الشام والعراق ، فوالى سراياه بعد خيبر على شمال الجزيرة حتى مهده ، ثم بعث فى نفس الوقت برسله إلى من رأى البدء بهم من الملوك والرؤساء خارج الجزيرة يدعوهم إلى الإسلام.

فتحُ خيبَر وَنَتائجه :

كان فتح خيبر فى صفر أو ربيع الأول سنة ٧ للهجرة / يونيو ٦٢٨ م . تمهيداً لأمر شمال شبه الجزيرة ، وقضاءً على قوة مجموعات قبائل الأعراب وأنصاف الأعراب الذين يسدون طريق المدينة إلى الشام ، وتوسيعاً لرقعة أمة الإسلام حتى تكون فى يدها تلك المجموعة من الواحات التى كانت إلى ذلك الحين أوسع منطقة زراعية فى شمال شبه الجزيرة ووسطها ، حتى إنها كانت تسمى «ريف الحجاز» طعاماً وودكاً ، والودك دهن اللحم ، حقاً إن المدينة تقدمت تقدماً باهراً فى ظل محمد ﷺ لأمة الإسلام من ناحية الزراعة والإنتاج ، ولكن هنا فى خيبر كانت وديان غنية واسعة تُزرع من عشرات السنين وربما مئاتها ، هنا كان يُزرع قمح كثير وشعير كثير ونخيل كثير ، وهنا أيضاً ثلاث تلال حصينة كلها مسلحة بالحصون والقلاع ومخازن السلاح والمؤن ، وهنا كذلك ماء كثير ، وتحيط بذلك تلال أخرى هى حافات حَرَّة خيبر وهى لا تُرام من جنوبها ، والمدخل إليها من الشمال أو الشمال الشرقى ، وفى خيبر ألوف اليهود من أهل المال والثروة والجاه العريض والقوة وجاه المال .

ومن حول خيبر قبائل من عتاة أعراب قيس عيلان : هوازن بحجمها الضخم ، ثم أسد بشراستها وإيغالها فى التوحش ، وطىء المتحصنة بجبليها أجأ وسلمى، وهذه كلها كانت دروعاً لخيبر وخيبر ردءاً لها ، وهى لهذا كله كانت فيما يرى أهلها وفيما يرى الناس لا تُرام . وعندما تسامع الناس بأن محمداً ﷺ يقصدها ، عجب الناس وسخر اليهود فى خيبر وخارجها فى الجزيرة من أمة الإسلام سُخْراً بالغاً ، قال الواقدى : « وكان يهود خيبر يظنون أن رسول الله لا يغزوهم لمنعتهم وحصونهم وسلاحهم وعددهم . كانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفاً ، ثم يقولون : محمد يغزونا ؟ هيهات هيهات! وكان من بمكة من اليهود حين تجهز النبى ﷺ إلى خيبر يقولون : ما أمنع والله خيبر منكم ! لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها

لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم : حصون شامخات فى ذرى الجبال ، والماء فيها وانن. إن بخيبر لألف دارع. ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب جميعاً إلا بهم ، فأنتم تطيقون خيبر !» .

وهذه العبارة الأخيرة تؤكد ما قلناه هنا مرة بعد مرة من أن البدو يستمدون القوة دائماً من الحاضرة التى تكون فى منازلهم أو قريبة منها ، لأن الصناعة لا تكون إلا فى مدينة أو مركز حضرى ، والبدو لا يستغنون عن المصنوعات وخاصة السيوف والدروع وآلة ركوب الخيل وآنية الطعام ، فإذا حُرِموا من حاضرتهم لم يلبثوا أن تدهوروا واضمحل أمرهم بِقِلَّة السلاح أو فقدانه ، وهذا هو ما أراده الواقدى بقوله : «ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلا بهم » ومن الواضح أن اليهود لم يكونوا يقاتلون مع أولئك الأعراب ، بل المقصود أن هؤلاء البدو يحصلون من خيبر على السلاح الذى يمتنعون من العرب قاطبة به .

وشُغِل الناس فى الجزيرة بخبر مسير محمد ﷺ إلى خيبر وانقسم الناس فى ذلك ، فقال ناس : إن محمداً يغلِب وقال آخرون : إن خيبر تغلب ، بل تراهن الناس فى ذلك ، واقرأ هذا الكلام الذى يسوقه الواقدى على لسان جاسوس يهودى قُبِض عليه وأُتِى به إلى النبى ، فكذب على المسلمين عندما سألوه ، فلما شددوا عليه قال الحق . قال : «القوم (اليهود) مرعوبون منكم خائفون وَجِلون لما قد صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود ، وأن يهود يثرب بعثوا ابن عم لى وجدوه بالمدينة ، قد قدم بسلعة يبيعها ، فبعثوه إلى كنانة بن أبى الحقيق يخبرونه بقلتكم وقلة حيلتكم وسلاحكم ، ويقولون لهم فاصدقوهم الضرب ينصرفوا عنكم ، فإنه (يريد رسول الله) لم يلق قوماً يحسنون القتال . وقريش والعرب قد سُرُّوا بمسيره إليكم لِما يعلمون من مَوَادِّكم وكثرة عددكم وسلاحكم وجودة حصونكم ، وقد تنافست قريش وغيرها ممن يهوى هوى محمد . تقول قريش : إن خيبر تظهر ، ويقول آخرون : يظهر محمد ، فإن ظفر محمد فهو ذل الدهر »[1] .

وهكذا يهبط قدر قريش مكة فلا يكون لها من دور فى هذه المعركة الفاصلة ، إلا

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٦٤١ .

أن تُسَرَّ بمسير محمد إلى خيبر أملاً فى أن تنتصر عليه خيبر واليهود ، وهذا الموقف وحده يدلُّنا على المدى الذى وصل به الحقد بقريش مكة ، فقد أنساهم أنهم عرب . ومن هذه الوهدة سيستنقذهم الهادى المبارك محمد ﷺ .

وتنتهى غزاة خيبر بنصر مؤزر لله ورسوله والمؤمنين ، ومكان التفصيل فيها فى السيرة التى أعاننا الله على إتمامها وله الحمد والمنة . ولكن أصدق ما يصور لنا جلال النصر الذى بلغه الإسلام بعد خيبر ، هذه السطور التى ننقلها من الواقدى ، وهى حديث جرى بين عيينة بن حصن الفزارى سيد غطفان ، والحارث بن عوف من سادة غطفان أيضاً ، وكان عيينة بن حصن قد ضيَّع حلفاءه من يهود وخان عهده مع رسول الله ، ثم ندم على ذلك بعد أن وجد نفسه فى النهاية صفر اليدين « فلما رجع إلى أهله جاءه الحارث بن عوف قال : ألم أقل لك إنك تُوضِع فى غير شىء ! والله ليظهرن محمد على ما بين المشرق والمغرب ، اليهود كانوا يخبروننا هذا . أشهد لَسَمِعتُ أبا رافع سلام بن أبى الحُقَيق يقول : إنَّا نحسِد محمداً على النبوة حيث خرجت من بنى هارون ، وهو نبى مرسل ، واليهود لا تطاوعنى على هذا ، ولنا منه ذِبْحَان ، واحد بيثرب وآخر بخيبر . قال الحارث : قلت لِسَلاّم : يملك الأرض جميعاً ؟ قال : نعم والتوراة التى أُنزلت على موسى ، وما أحب أن تعلم اليهود بقولى فيه »[1] .

مُلاحظات عَلى عمرة القضيّة :

أمن رسول الله ﷺ من خطر اليهود وأحلافهم فى الشمال وأصبح يستطيع أن يوجه جهده كله نحو مكة للفراغ من أمرها خاصة ، وقد استسلمت فدك والرسول صلوات الله عليه فى آخر مراحل معركة خيبر .

وعاد الرسول بعد ذلك إلى المدينة مظفراً ، وقد اتسعت رقعة أمة المدينة حتى شملت كل منطقة خيبر وما حاذاها إلى بحر القلزم ، ومع خضوع خيبر خضعت غطفان وأَسَدٌ وطيىء بالإضافة إلى قبائل شمالى الحجاز : عُذْرة وجُذام وغِفَار وقِطَع من قضاعة وقبائل أخرى أصغر ، وهذه كلها كانت دخلت فى حلف المدينة ، أسلم منها مَنْ أسلم ، وبقى على شركه أو نصرانيته من أهلها من بقى ، ولكنها أصبحت

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٦٧٧ .

داخلة فى نطاق أمة المدينة على أى حال ، وفى أثناء ذلك استمر رسول الله يبعث بالسرايا لاستكمال أمر الإسلام ، فبعث عمر بن الخطاب فى سرية إلى تُربَة شرقى الطائف (شعبان ٧ هجرية) للتوثق من أمر بعض قبائل هوازن مثل بنى نصر بن معاوية وبنى جُشم بن بكر ، وفى نفس الوقت تقريباً ذهبت سرية يقودها أبو بكر إلى هوازن أيضاً ، وهذه كلها أعمال كان لا بد منها لإحكام القبضة على قريش مكة ، ثم أرسل بَشير بن سعد إلى فَدَك لضمان طاعة قوم من ذُبيان هم بنو مرة بن عوف بن سعد فلم يوفق بشير ، ثم أراد رسول الله أن يبعث الزبير بن العوام فى سرية لتأديب بنى مرة هؤلاء ، ثم استبدل به غالب بن عبد الله الليثى ، وكان قائداً ذا تجربة وطالع ميمون ، وبعث معه نفراً من كبراء الصحابة منهم أبو مسعود عقبة بن عمرو وكعب ابن عُجْرَة وأُسامة بن زيد وعُلية بن زيد ، وقد أبدى غالب خلال هذه السرية من دلائل القدرة على القيادة ما يدل على أن الرسول أخرج من تحت يده قادة للرجال حقاً .

وفى هذه السرية وقع أُسامة بن زيد فى خطأين : الأول إنه خالف أمر قائده ، وكان قد آخى بين كل اثنين من رجاله وحذرهم الافتراق ، فخالفه أسامة وتبع رجلاً وقتله بعد أن قال لا إله إلا الله ، وهذا هو الخطأ الثانى ، فلم يعجب ذلك رسول الله من عمل أسامة ، فقال أسامة يلتمس لنفسه العذر : إنما قالها تعوذاً من القتل ، فقال له رسول الله ﷺ عبارته البالغة العمق والحكمة والإعلام بروح الإسلام : « ألا شققت قلبه فتعلم أصادقٌ هو أم كاذب » . وكان أسامة إذ ذاك فى مداخل شبابه وعمره ستة عشر عاماً أو نحوها ، وبمثل هذا التوجيه كان رسول الله يربى ويُعلِّم ويكَوِّن ، وأسامة هذا سيصبح عَشية مرض الرسول من أحب شباب الإسلام إلى رسول الله .

وكان توفيق غالب بن عبد الله هذا داعياً إلى إرسال الرسول إياه فى سرية إلى مَيْفَعة من نواحى غربى نجد ينزلها قوم من بنى عبد بن ثعلبة أهل قلق وغارة ، فَوُفِّقَ غالب فيما أرسله الرسول له ، وقد أظهر المسلمون فى هذه السرية من حسن السمت والنظام وصدق الإيمان ما ينبىء حقاً بأنهم نبت جديد ظهر فى رياض الإسلام . وغالب بن عبد الله الكنانى الليثى من عظماء أهل الفتوح أيام الرسول ﷺ ، فإلى جانب مهارته

وحزامته وحسن تصرفه وبسالته ، كان رجلاً قائداً ذا إيمان وثيق ، وقد قاد ثلاث سرايا تعد من أحسن ما قام به المسلمون فى العصر النبوى نظاماً وضبطاً وبلاغاً للغاية ، ثم إن رسول الله ﷺ أرسله طليعة عند فتح مكة ليسهل لهم الطريق كما يقول الرواة . وقد استوقف نظرى اختفاء اسم هذا الصحابى العظيم بعد فتح مكة ، وهناك من يزعمون أنه قُتل فى سريةٍ على بنى مرة قرب فَدَك ، وليس لدينا ما يؤيد ذلك ، ثم إن غالباً كان موجوداً ومشاركاً فى فتح مكة .

ثم تكون عمرة القضاء أى عمرة قضاء ما تم الاتفاق عليه فى الحديبية وتسمى لهذا عمرة القضية أى عمرة الصلح ، والواقدى يسميها غزوة القضية ، وكانت فى ذى القعدة سنة سبع هـ/ مارس ٦٢٩ م .

وعمرة القضاء لم يكن فيها قتال ، وهذا مفهوم ، ولكن كان فيها تلاقى الخصوم : قريش الكفر وقريش الإيمان ، والدراسة الملية هنا تكشف عن الكثير . والناس يتلاقون فى الحرب ويتلاقون أيضاً فى ميدان العقل والفكر ، وهنا نشعر أننا أمام عقل وفكر وإيمان فى ناحية ، وضيق أفق وغرور وغضب فى الناحية الأخرى ، ولم تَعدَم قريشُ الكفر العقل والحكمة ، ولكنها كما ترى عقل جاهلى وحكمة جاهلية .

ونبدأ من البداية فنقول : إن رسول الله حَثَّ على الإنفاق ، أى أن من عنده مال ينفق على من ليس عنده والقادر يعين غير القادر ، ويستوقف نظرنا هنا أن أمة المدينة لا تزال تعانى الفقر والحاجة وقلة السلاح رغم التوفيق الكبير الذى نالته والتنظيم واتساع الرقعة . ولكن أمة المدينة إلى يومها ذاك فى معركة ، والرجال يقاتلون جميعاً وليس يبقى من الجهد ما يكفى للتوسع فى زرع وضرع أو صناعة شىء كثير . ولقد زرع أهل المدينة كل الأرض الغامرة فى سهلهم ، ولكن زرعهم كان زرعاً قليلاً ، فهو الشعير فى الغالب لسهولة زرعه وقرب مجتناه ، أما القمح فقليل والنخل لا يؤتى إلا بعد سنين ، والأعناب فى ذلك الحين لم تكن بغذاء ، إنما كان قوام حياة الناس على الماشية واللبن والتمر وشىء من الدقيق ، وكان المسلمون يبذلون أقصى جهد فى رعاية الماشية . ولا نزال ونحن نقرأ السيرة نصادف أخبار الجوع وقلة الطعام ، ورسول الله يبعث فى القليل من بركته فيكثر .

ويسمع الناس دعاء الرسول بالإنفاق والتصدق ، ويسألون نبيهم . بم نتصدق ، فيقول : ولو بشق تمرة ، ولو بِمِشْقَصٍ (وهو نصل السهم دون سِنِّه) أى : قطعة خشب . وآيات القرآن تتنزل تُقَوِّى نفوس الناس وتبشرهم بالنصر وتحثهم على البذل مثل قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ(١٩٥) ﴾ [البقرة] . ويسوق رسول الله معه الهدى فى عمرة الحديبية ، ستين بدنة وهى هنا عن نفسه وعن غير القادر من المسلمين ، وعلى الهدى ذلك الأسلمى الذى نعرفه ولا نزال نلقاه ونحبه ، ناجية بن جُندُب الأسلمى ، ومعه أربعة من فتيان أسلم يرعون هدى الرسول ، وصدق المصطفى : أَسلَم سلَّمها الله .

وخرج الرسول من المدينة فى هيئة ما أجملها ، قاد مائة فرس فلما وصل ذا الحُليفة ، قدَّمها أمامه وحمل معه السلاح والبِيض والدروع يسير بها بَشير بن سعد ، فقيل له : يا رسول الله ، حملت السلاح وقد شرطوا علينا ألا ندخل عليهم إلا بسلاح المسافر ، السيوف فى القُرُب ، فقال رسول الله ﷺ : إنه لا نُدْخِلَها عليهم الحرم ، ولكن تكون قريبة منا ، فإنْ هاجنا هيج من القوم كان السلاح قريباً منا ، قيل : يا رسول الله ، نخاف قريشاً على ذلك ، فاسكت (أى سكت) الرسول وقدّم البُدْن .

وكان رسول الله ﷺ قد أحرم من مسجد المدينة لأنه أزمع السير عن طريق الفُرُع ، وكان يحبه لأنه يمر فيه على الأبواء وفيها قبر أمه ، ولو أزمع السير عن طريق البيداء وهى الجادة لأهَلَّ من البيداء.

وكان محمد بن مسلمة قد سبق بالخيل حتى أدرك مَرَّ الظَّهران ومعه بشير بن سعد بالسلاح ، وهناك كانت طلائع قريش تنتظر ، ويعلن محمد بن مسلمة أن رسول الله ﷺ يصبح بمَرِّ الظهران من غد ، وتسرع طلائع قريش إلى مكة بالخبر ، وهنا ينكشف الغطاء ويبدو على قريش الفزع من أن يكون محمد ﷺ قد أزمع ليدخلنها بالسلاح ، «ففزعت قريش فقالوا : والله ما أحدثنا حَدَثاً ، ونحن على كتابِنا ومُدَّتِنَا (صلحنا إلى عشر سنين) ففيم يغزونا محمد فى أصحابه » ؟

وينزل رسول الله مَرَّ الظهران ويقدِّم السلاح إلى بطن يأْجَج على مقربة من أنصاب الحرم عند التنعيم قبالة موضع الحُدَيبية . وتبعث قريش مِكرز بن حفص بن الأخيف

فى نفر من قريش ، حتى لقوه ببطن يأجَج «ورسول الله ﷺ فى أصحابه والهدى والسلاح قد تلاحقوا فقالوا : يا محمد ! والله ما عُرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر ! تدخل بالسلاح الحرم على قومك ، وقد شرطت ألا تدخل إلا بسلاح المسافر ، السيوف فى القرب ! فقال رسول الله ﷺ : لا ندخلها إلا كذلك» [1] وهنا فقط اطمأنت قلوب القرشيين ، فمحمد لن يستعمل السلاح . وهذه درجة من الخوف ما وصلت إليها قريش قط منذ عرفناها إلى ذلك الحين.

ودخل محمد ﷺ ومن حوله أصحابه مكة وهو يلبى وهم يلبون من حوله والسيوف فى أيديهم ، واستمرت التلبية حتى استلم الركن. ولم يفته الحذر قط ، فقد جعل أوس بن خَوْلىّ مع مائتى رجل على السلاح ، وأوس بن خولى وجه جميل رأيناه مراراً ، ونحن نعرفه فهو من سادات بنى سالم الخُبلى من الخزرج (وهم قوم عبد الله بن أُبَى!). وهو كان آخر من نزل قبر الرسول من الأنصار .

ويقول رواتنا: إن قريشاً خرجت إلى رؤوس الجبال. ولكن من قريش؟ كل البلد ؟ تعتقد أن هذا الخروج اقتصر على رؤوس الكفر من أعداء محمد والإسلام ، وهم نفر ليس بالكبير ، من أمثال عِكْرِمة بن أبى جهل الذى نظر إلى المسلمين يطوفون بالبيت وهو معتصم بالجبل يحمد الله على أن أباه أبا جهل قضى قبل أن يرى هذا المشهد العسير عليه ، وبلالٌ على ظهر الكعبة يؤذن . وكذلك كان صفوان بن أمية وخالد بن أسيد بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس ، أما سهيل بن عمرو ورجال معه فحين سمعوا بلالاً « ينهق فوق الكعبة » كما قالوا ، فقد غطوا وجوههم حتى لا يروا هزيمة أنفسهم بأعينهم .

وطاف رسول الله ﷺ بالبيت ، وسعى بين الصفا والمروة على راحلته ، فقد كان مجهداً متعباً ، ونحر هَدْيَه بيده عند المروة ، وتقدم خراش بن أمية فحلق رأس الرسول هناك .

وبعد قضاء المناسك حدث حادث لطيف لا بأس من إيراده هنا ، لأنه يدل على خلق القرشيين الذين أسلموا وهاجروا مع محمد ﷺ وأيدوه وشهدوا معه المشاهد

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٧٣٤ .

ليتجلى بذلك الفرق بين قريش الكفر وقريش الإسلام . ذلك أن عُمارة بنت حمزة بن عبد المطلب ، كانت قد تُركت فى مكة عند بعض عَمَّاتها . وكانت أمها سلمى بنت عُمَيس وهى خثعمية يمنيـة من بنى عمرو بن نبت بن مالك بن زيـد بن كهلان بن سبأ ، من الأزد .

فلما فرغ الرسول من عمرته أتاه علىّ بن أبى طالب فقال له : علام تترك بنت عمنا يتيمةً بين ظَهْرَى المشركين ؟ وعلى بن أبى طالب كان ابن عمها لأن حمزة بن عبد المطلب أبوها ، وحمزة استشهد فأصبحت الولاية عليها لأحد أعمامها ، وأقربهم هنا على بن أبى طالب ، فلم ينهه الرسول عن إخراجها ، فذهب فأتى بها ، وهنا تكلم فيها زيد بن حارثة ، وكان أخاً لحمزة فى الإسلام ، إذ آخى الرسول بينه وبين حمزة وقال : أنا أحق بها فهى ابنة أخى ، وسمع بذلك جعفر بن أبى طالب ، وكان قد عاد من الحبشة ولقى الرسول فى خيبر ، وجعفر كان زوج أسماء بنت عميس أخت سلمى ، فعمارة إذن ابنة أخت امرأته ، ورأى أنه أحق برعايتها من زيد بن حارثة ، وكأنه خاف أن يتزوجها زيد ، وكان زيد مزواجاً مطلاقاً ، وكان شديد السمرة قصيراً أفطس الأنف ، وكان هذا بعض ما نَفَّر منه امرأته زينب بنت جحش فى حديث طويل رويناه فى سيرة المصطفى صلوات الله عليه فى كلامنا عن زواج نبى الله من زينب بنت جحش .

وعاد على بن أبى طالب يعجب من ادعائها الحق فى هذه البنية وهى ابنة عمه وهو الذى أخرجهـا من بين أظهر المشركين ، فقـال رسـول الله : أنا أحكم بينكم ، ثم حكم بها لجعفر لأن خالتها امـرأته « ولا تنكح امرأة على خالتها ولا على عمتها » ، ثم عرضوا على رسول الله أن يتزوجها فأبى ذلك ، لأن عمارة ابنة أخيه فى الرضاعة وهو حمزة ثم زوَّجها سلمة بن أبى سلمة بن عبد الأسد ، وكان يقول : هل جزيت سلمة؟ إشارة إلى أن سلمة هو الذى زوجه أمه أم سلمة وهو ﷺ زوَّجه عمارة . وهذه بتلك.

وكأنما أراد رسول الله أن يفسح المجال لنفسه فى مكة ، فلعل أهل العناد من القرشيين يرون سوء رأيهم فى هذا الموقف الجامد المتحجر من الإسلام ورسوله ، فخطب ميمونة بنت الحارث بن حَزْن الهلالية وهى أخت أسماء بنت عميس وسلمى

وسلامة بنتا عميس لأمهن ، وأمهن جميعاً هند بنت عوف بن الحارث الحميرية ، فالأم واحدة والبنات كثيرات ، وقد رزقت هند الحميرية هذه تسعاً أو عشراً من البنات كلهن تزوجن أكرم زيجات ، ومن بنات هند هذه لبابة بنت الحارث وهى أم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب وهى لبابة الكبرى ، ولهن أخت أخرى تسمى لبابة الصغرى هى أم خالد بن الوليد ، فانظر والله إلى تشابك أنساب هؤلاء العرب واشتباك قريش بالصهر مع القبائل فى كل صقع من أصقاع الجزيرة . وكأن رسول الله عندما خطب ميمونة - وهى خالة خالد بن الوليد - قد أدناه من نفسه بذلك ، فكأنه ﷺ قد أصهر إليه فكان ذلك من أسباب تعجيل إسلامه .

نقول : إن رسول الله ﷺ خطب ميمونة ، فلما انقضت الأيام الثلاثة التى كان القرشيون قد أذنوا للمسلمين بالبقاء فى مكة خلالها أتاه عند ظهر اليوم الرابع سهيل ابن عمرو وحويطب بن عبد العزى ، «ورسول الله ﷺ فى مجلس من مجالس الأنصار يتحدث معه سعد بن عبادة ، فقال (سهيل) : قد انقضى أجلك فاخرج عنا . فقال النبى ﷺ : وما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم ، فصنعت لكم طعاماً ؟ فقالا : لا حاجة لنا فى طعامك ، اخرج عنا ، ننشدك الله يا محمد والعهدَ الذى بيننا وبينك إلا خرجت من أرضنا ، فهذه الثلاث قد مضت »[1] وكان رسول الله توكيداً لحسن النية قد أقام فى خيمة ضربت له ، ولم ينزل فى بيت من بيوت بنى هاشم فغضب سعد بن عبادة من غلظة سهيل وحويطب « فقال لسهيل : كذبت لا أُمَّ لك ، ليست بأرضك ولا أرض أبيك ، والله لا يبرح منها إلا طائعاً راضياً »[2] .

وأراد الرسول أن يحسم الخلاف ، وكأنه أَنِفَ المقام بعد كلام هذين الغليظين ، فقال لسعد بن عبادة : يا سعد لا تؤذ قوماً زارونا فى رحالنا ، وأُسكت الرجلين عن سعد ، وأمر مولاه أبا رافع أن يؤذن بالرحيل ، وقال : لا يبيتن بها أحد من المسلمين ، وخرج ﷺ سريعاً إلى سَرِف وترك أبا رافع ليحمل إليه ميمونة ، فاستطال المشركون على أبى رافع ، وكظم أبو رافع غيظه ، ولكنه أزمع إذا بطش به أحدهم أن يبطش به . ولكن أحداً لم يفعل وقال أبو رافع : « ما شئتم . هذه والله الخيل والسلاح ببطن

(١) الواقدى ، مغازى ٧٣٩-٧٤٠ .
(٢) المصدر السابق : ٧٤٠ .

يَأْجَج» وكانت تلك هى الأسلحة التى أعدها رسول الله ﷺ مخافة غدر المشركين .

ولحق أبو رافع برسول الله ومعه ميمونة ، فبنى بها رسول الله ﷺ فى سَرِف ، ومن الفجر أدلج إلى المدينة . ومن غرائب الاتفاق أن ميمونة ماتت كذلك فى سرف سنة إحدى وخمسين (٦٧١م) أو سنة ٦٣ هـ / ٦٨٣م . وهى سنة موقعة الحرة وهى مأساة من مآسى تاريخ صدر الإسلام .

وبعد عودة رسول الله ﷺ إلى المدينة أقبل إليه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وصاحبهما عثمان بن طلحة فأسلموا ، وكان إسلامهم فى المحرم سنة ٨ هـ / مايو ٦٢٩م . ولأصحاب السيرة والتاريخ فى الإسلام عمرو وخالد كلام طويل فيه طعم القصص ويستوقف نظرنا فى حديث إسلام خالد وعمرو أنه جاء من ناحية العقل أكثر مما جاء فى البداية من ناحية القلب ، فأما عمرو فقد ضاقت به الدنيا وهو يرى نصر الإسلام حتى ذهب إلى الحبشة ، وهذا قصص فيما نحسب . ولكن الرجل وجد بذكائه بعد عمرة القضية أنه لا مفر له من الإسلام إن كان يرجو لنفسه صلاحاً ، ويصور دافع الرجلين إلى دخول الإسلام فى تلك المرحلة الأولى من تاريخهما الطويل ذلك الحديث بين عمرو وخالد وهما فى الطريق إلى محمد ، « قال عمرو عندما لقى خالداً : أبا سليمان ؟ قال : نعم . قال : أين تريد ؟ قال : محمداً ، دخل الناس فى الإسلام فلم يبق أحد به طمع ، والله لو أقمنا لأخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع فى مغارتها ، وقال عمرو : وأنا والله أردت محمداً وأردت الإسلام » .

وقد أتيت بهذه القطعة من حديث أظنه من كلام القُصَّاص لأننى تنسَّمت فيه معنيين : الأول أنه يمثل يأس قريش أمام الإسلام ، وأنه لم يبق أمام أى قرشى طامح سبيل إلى الحياة إلا به ، والثانى هو أن هذين الرجلين اللذين سيدخلان الإسلام وكأنهما مضطران لن يلقيا محمداً حتى تتغير دنياهما ، فأما خالد فيصبح سيف الله وسيف رسوله ، ويتجلى عن واحد من أعاظم العسكريين فى تاريخ الدنيا ويرفع راية الإسلام إلى شأو بعيد ويلحقه بأعاظم الجيل الأول من أجيال المسلمين ، وأما الثانى - عمرو بن العاص - فسيسفر عن فاتح سياسى لا يُشق له غبار ، وأما خالد فسيودع الدنيا وعلى رأسه نور اليرموك . وأما عمرو فقد أرادت له تصاريف السياسة أن يكون

من حزب بنى أمية بعد مجد أجنادين ومجد فتح مصر وبرقة ، وتلك هى بركة المدرسة المحمدية التى لو بقيت روحها فينا لحلت بنا - نحن المسلمين - البركة والنعمة ، ولما بقيت نفس فى هذا الكوكب إلا وَحَّدَت ودخلت دين الله وصَلَّتْ على محمد .

وينبئنا عما كان ينتظر خالداً فى الإسلام إصراره عندما وقف بين يدى محمد ليدخل فى الإسلام ، أن يوعَد بالمغفرة عما سلف من أمره فى عناد الإسلام ، فقال ﷺ : «اللهم اغفر لخالد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك ! » وأمثال هذه المواقف تُرينا حجم الشخصية المحمدية ، فهذا خالد كله وهو ملء التاريخ يقف بين يدى الرسول يلتمس الدعاء له بالمغفرة ، ورسول الله يدعو بها له فى هدوء النفس المطمئنة وجلال الرسول الهادى البشير النذير .

وكان كل من الرجلين فى مطالع حياته ، وكان تَرْكُهما قريشاً نذيراً بما هى صائرة إليه ، وعلامة على ما وصل إليه حالها بعد صلح الحديبية .

وأما عثمان بن طلحة فقد اندرج فى غمار المسلمين ، وهو يكمل هذه الكوكبة الرفيعة من بنى عبد الدار الذين زانوا تاريخ الإسلام الأول ، وحسبك منهم مصعب ابن عمير . لقد قتل أبوه طلحة وعماه أبو سعد وكلاب كافرين فى أُحُد ، وأما هو فقد أكرمه الله بالإسلام وعاش حتى يشهد فتح مكة مع رسول الله ﷺ ويتسلم من يده الكريمة مفتاح الكعبة ، أعطاه الرسول إياه التزاماً بشيمة الوفاء لبنى عبد الدار أصحاب ولاية الكعبة بعد أن أباها الرسول على عمه العباس ، وكان فيها طامعاً .

وهنا موضع خبر وقع بُعَيد عودة الرسول ﷺ إلى المدينة من عمرة القضية ، ذلك أن نفراً من بنى كلاب بن عامر بن صعصعة ، وهم أبناء عمومة بنى هلال بن عامر بن صعصعة من قيس عيلان ، وفدوا على النبى وأسلموا وهاجروا إلى المدينة ، وكانت هناك عداوة بين بنى كلاب وخزاعة ، فخاف الخزاعيون من أن يكون إسلام بنى كلاب بن عامر بن صعصعة وهجرتهم مُبْعِداً لهم عن رسول الله ، لأن الكثيرين منهم لم يكونوا أسلموا ، وكذلك الكثيرون من الخزاعيين كانوا مقيمين فى مواضعهم من البدو بين مكة والمدينة ، فكلموا الرسول فى ذلك فكتب لهم كتاباً فى جمادى الآخر سنة ثمان .

قال الواقدى : «وذلك أنه أسلم من العرب كثير ، ومنهم من هو بَعْدُ مقيم على شركِه ، ولما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية لم يبق من خزاعة ، إلا مسلم مصدِّق بالله قد أتوا بالإسلام (أى دخلوا فيه) وهو فيمن حولهم قليل، حتى قدم علقمة بن علاثة وابنا هوذة[1] وهاجروا ، فذلك حيث كتب رسول الله ﷺ إلى خزاعة : بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى بُديل وبِشر وسَرَوات بنى عمرو[2] . سلام عليكم ، فإنى أحمد الله إليكم . الله لا إله إلا هو ، أما بعد فإنى لم آثم بإلَّكُم ولم أَضَع فى جنبكم . وإن أكرم تهامة علىَّ أنتم ، وأقربهم رحماً ، أنتم ومن تبعكم من المُطيَّبين ، فإنى قد أخذت لمن قد هاجر منكم مثل ما أخذت لنفسى - ولو هاجر بأرضه - غير ساكن مكة إلا معتمراً أو حاجاً ، وإنى لم أضع فيكم إذ سالمت ، وأنكم غير خائفين من قِبَلى ولا محصورين . أما بعد ، فإنه أسلم علقمة بن عُلاثة وابناه وتابعا وهاجرا على من تبعهما من عكرمة أخذت لمن تبعنى منكم ما أخذت لنفسى، وإنَّ بعضَنا من بعض أبداً فى الحل والحرم ، وإننى والله ما كَذَبتكم ، ولْيُحِبَّكم ربكم»[3].

وقد قال الرسول ذلك فى كتابه لتطمئن خزاعة على مكانتها من رسول الله وأمة الإسلام ، وكانت خزاعة قبل ظهور الإسلام ضياعاً بين أعراب الحجاز وتهامة ، لأنها كانت من أنصار عبد المطلب وبنيه ، وكانت كما رأينا مما انضم إلى حلف المطيبين، وهو حلف بنى عبد المطلب ومن معه ، المناهضين للأحلاف أو لعقة الدم وهم عبد شمس ومن والاهم ، وقد أخذهم رسول الله تحت جناحه فصاروا أحلاف أمة الإسلام . وأنت تراهم هنا قد أسلموا جميعاً ، ولكنهم لم يستطيعوا الهجرة بجمعهم إلى المدينة فمنحهم رسول الله رتبة المهاجرين سواء هاجروا أم بقوا فى مكانهم ، مما يُفهم منه أن الهجرة لم تكن فى عصر النبى مجرد الهجرة إلى المدينة المنورة ، بل الهجرة إلى الله ورسوله بالقلب والإيمان كذلك ، ويستتبع هذا ترك البداوة وأخلاقها والاستقرار والتحضر وأخلاقهما ، وهذا معنى بعيد من معانى الهجرة سنزيده إن شاء الله بياناً فى كتابنا التالى

---

(١) هما خالد وحرملة ابنا هوذة بن خالد بن الحَيْسَر بن ربيعة بن عمرو فارس الضحياء . وسادة بنى عمرو فارس الضحياء بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة أبناء عمومة بنى هلال الذين ذكرناهم آنفاً ، انظر ابن حزم ص ٢٨١.

(٢) بديل بن ورقاء من سادات بنى كعب بن عمرو الخزاعيين وبسر أخوه . أما عمرو فهم أبناء عمرو بن عامر بن ربيعة. فارس الضحياء من سادات بنى عمرو بن كعب الخزاعيين .

(٣) الواقدى ، مغازى : ٧٤٩ - ٧٥٠ .

عن قيام أمة الإسلام أعاننا الله على كتابته ، وهو سبحانه من وراء القصد والنية .

وقبل أن أنتقل إلى فتح مكة وهى الخطوة الحاسمة التى خطاها الرسول ﷺ فى طريقه إلى توحيد شبه الجزيرة تحت راية الإسلام وتحويلها إلى قاعدة انتشار الإسلام فى العالمين ، أقف هنا وقفة قصيرة عند حادث صغير له مغزاه وقع فى سرية الخَبْط . وهى سرية بعث فيها رسول الله ﷺ أبا عبيدة عامر بن الجراح فى نفر من خيرة المهاجرين والأنصار لتوكيد دخول جُهَينة فى الإسلام ، وجهينة كانت منازلها إلى الشمال من المدينة على ساحل البحر الأحمر حتى قرب وادى القرى ، وكان رسول الله قد أرسل قبلها عمرو بن العاص فى سرية أخرى فى نفس الاتجاه لكى يدخل قبيلة جُذام فى الإسلام أو فى حلف المدينة وأمانها ، وكلا السريتين نتيجتان لما لقى المسلمون فى مؤتة حيث اجتمعت قبائل من عرب الروم أو نصارى العرب مع الروم أنفسهم وأنزلوا بالمسلمين هزيمة مؤتة . وكأنما رأى الرسول أنه لا يمكن لقاء الروم فى صراع فاصل إلا بعد أن تدخل مجموعة القبائل المحالفة لهم مثل غسان أو الضالعة معهم مثل لخم وجذام وهى من القبائل العربية الضاربة فى الشمال وبَلِىّ وعُذرة وبَلقين (بنو القين) .

وتسمى هذه القبائل فى العادة باسم عرب الروم أو نصارى العرب ، وربما كانت النصرانية منتشرة فى بلاد غسان ، أما عند سواها ممن ذكرنا من العرب فقد كانت هناك نصرانية قليلة . ودليل ذلك أننا نجد كنائس فى البلاد التى سادها الغساسنة ، أما بقية القبائل فلا نجد فيها كنائس إلا فى بلاد طىء حيث نجد كنيسة ، ولكننا لا نجد هناك أحباراً أو قسيسين ، وأقصى ما نستطيع أن نقوله إنهم كانوا نصارى بالاسم والميل لا بالإيمان ، أو ربما كانت نصرانيتهم سياسية ، أى : أن قولهم أو قول بعضهم بالنصرانية كان جزءاً من التأثر بالروم أو القوم بما يقولون .

فى هذه السرية نشهد ظاهرة ستبدو لنا جلية عند وفاة الرسول ﷺ فى ٨ هـ / سبتمبر ٦٣٢م وهى أن عمر بن الخطاب - وكانت له فى جماعة المهاجرين مكانة إلى جانب أبى بكر - لم يكن على وفاق مع سعد بن عبادة وجماعة كبيرة من الأنصار . ولقد كان رسول الله ﷺ رأس أمة الإسلام كلها حريصاً على القضاء على بقايا

العصبيات فى أمة الإسلام . وكانت هناك بالفعل بقايا استطاع ﷺ معالجتها بحكمته وفطانته وإيمانه ولكنها ظلت نائمة ولم تظهر إلا بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى . ولم يسلم من هذه النزعات من كبار أصحاب الرسول ﷺ إلا ناس من أمثال : أبى بكر ، وأبى عبيدة ، وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه .

والحادث الذى نشير إليه يتلخص فى أن الطعام عند أهل السرية كان قليلاً حتى اضطروا إلى أكل الخَبْط ، وهو نبات حريف تتورم منه الشفاه . فلما اشتد بهم الأمر تقدم قيس بن سعد بن عبادة ، وكان من رجال السرية ، وعرض على أحد الجهنيين أن يشترى منه جُزُراً أى إبلاً للذبح بتمر من تمر المدينة ، ولم يكن مع قيس تمر وإنما هو اشترى الجزر دَيْناً ، أى : أنه وعد الجهنى بأن يعطيه حقه عندما يعود إلى المدينة ، وسقين من التمر من مقابل كل جزور والوسق حِمل الجمل . فاعترض عمر على الصفقة لأن قيساً فى رأيه لا يملك المال وإنما يملكه أبوه . ولا يستطيع الرجل أن يشترى شيئاً بمال أبيه دون إذن الأب وضمانه ، وقال عمر : واعجباً لهذا الغلام ! لا مال له يَدَّان فى مال غيره ، ولكن الجهنى عندما عرف نسب قيس أمضى الصفقة واشترط أن يشهد عليها شهود فشهد نفر من كبار الأنصار والمهاجرين ، وقَبِل الناس ذلك إلا عمر فقد امتنع من الشهادة لأن الصفقة فى اعتباره لم تكن مشروعة ، ووقعت بين الاثنين ملاحاة أغلظ فيها قيس لعمر فى الكلام .

والحقيقة أن عمر لم يكن له أن يدخل فى هذا الأمر ، إنما أمره إلى أبى عبيدة أمير السرية وله مكانته الكبرى فى الدين والورع زيادة على إمارته ، وقد تدخل أبو عبيدة فى الأمر عندما بلغت الجُزُر التى نحرها قيس ثلاثاً ، لأنه لم ير أن يتمادى قيس فى الإنفاق من مال أبيه دون إذن .

فلما عادت السرية إلى المدينة وأبلغ قيس أباه ما فعل ، استحسنه الأب وأمضاه ، وكان قيس قد قال لأبى عبيدة قبل عودتهم : أترى أن أبا ثابت (والد قيس وهو سعد ابن عبادة) وهو يقضى دين الناس ويحمل الكَلَّ ويطعم فى المجاعة ، لا يقضى سقة (أى وسق) تمر لقوم مجاهدين فى سبيل الله ؟ وقد مال أبو عبيدة إلى رأيه ولكنه انضم فى النهاية إلى عمر . وقد أيد سعد ابنه وأعطاه أربع حوائط (حدائق) لكى يكون له

مال ينفق منه كما يريد . وأراد قيس أن يثبت لأبى عبيدة وبقية أهل السرية كيف أنه كان صادقاً فيما توقع من إقرار أبيه لعمله فطلب إلى أبى عبيدة أن يشهد على عقد تنازل أبيه له عن الحدائق .فشهد ، أما عمر فرفض ، مما يدل على أنه كان بين عمر وسعد شيء من عدم التراضى ، وهو أمر سيتجلى فيما جرى فى سقيفة بنى ساعدة ، فانظر فى مقابل ذلك ما قاله الرسول تعليقاً على الحادث كله : إنه (بيت سعد بن عبادة) بيت جود وهذا مقال من إنصاف الرسول للناس ، ودقة حكمه على الأمور فهو لم يثبط همة الغنى فيما فعل ، ولم ينظر إليه على أنه تصرُّف فيه غرور ، وإنما امتدح البيت كله فى كلمة قصيرة أسعدت الأب والابن وأجازت ما فعلاه جميعاً .

* * *